٢٩

شرح الأفعال الاختيارية من العباد

تصنيف شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

المتوفى سنة (٧٢٨) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني

حفظه الله

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

شرح
الأفعال الاختيارية من العباد

٢٩

شرح

الأفعال الاختيارية من العباد

تصنيف شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

المتوفى سنة (٧٢٨) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ الدكتور

محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني

حفظه الله

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

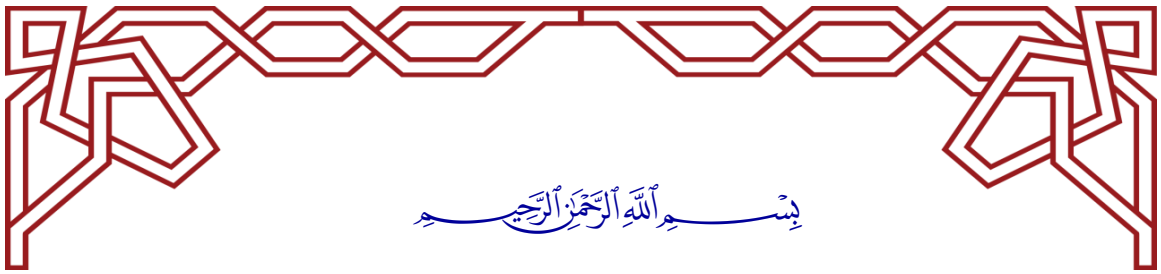

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدمة المشرفين على التفريغ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلي الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن من نعم الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن جعل فيها علماء ربانيين وأئمة في الدين، ورثوا من علم النبوة على قدر ما قسم الله لهم من ذلك الميراث العظيم الذي لا يعادله شيء من متاع الدنيا الفاني.

ومن رحمة الله بعباده: أنه كلما اشتدت حاجتهم إلى أمر من الأمور كلما يسر الله سبل تحصيله، ونوع لهم الطرائق الموصلة إلى نيله وبلوغه، ولما كان العلم أعظم ما يحتاجه العباد وليس لهم عنه غنى طرفة عين، ولا سيما علم العقيدة والتوحيد الذي هو أشرف العلوم وأزكاها، وأجلها قدرًا وأسناها، والذي قد زادت الحاجة إليه في هذه الأزمنة المتأخرة، بسبب انتشار الأهواء والبدع، وكثرة المخالفين للتوحيد والمعتقد، والمجانبين للسنة والأثر.

ولما كان الأمر كذلك رأينا منة الله علينا في هذه الأعصر بوسائل كثيرة لحفظ العلم ونشره لم تكن متيسرة لمن قبلنا، وإن من تلك الوسائل حفظ الدروس في تسجيلات صوتية ومقاطع مرئية، تنقل العلم لفظًا ومعنى.

وكان من تمام نعمة الله علينا أن هيأ وسائل حديثة لحفظ هذا العلم، وهو ما يعرف بـ "التفريغات" والتي تنقل علم الشيوع من مسموع إلى مقروء، فتعين الطالب على توفير وقته وجهده، وتدعوه لجمع قلبه وعقله على حفظ العلم وضبطه، وتساعد على انتشاره عبر وسائل التواصل والتقنيات الحديثة، مما يهيئ السبل للانتفاع به، وتداوله بيسر وسهولة من قبل الدارسين والمتعلمين، بل والأساتذة والمدرسين في أحيان كثيرة.

ومن هنا جاءت فكرة المساهمة في تفريغ دروس فضيلة الشيخ الدكتور محمد محمدي بن محمد جميل النورستاني حفظه الله تعالى.

وقد يسر الله تعالى الخطوة الأولى لهذه المرحلة وهي إنشاء قناة للشيخ علي الشبكة، وكذا إنشاء حساب لدروسه في اليوتيوب، والتليجرام، كل ذلك حرصًا على الحفاظ على ما تيسر الحصول عليه من مجالس ودروس فضيلة الشيخ حفظه الله تعالى، وكان الذي فات منها وضاع إن لم يفق الموجود كثرة فلا يقل عنه عددًا، وعزاؤنا فيه أن الله يعلمه، وأن الملائكة كتبته، ونسأل الله عز وجل أن يتقبل ذلك من الشيخ وأن يجعله في موازين حسناته، ومن تلك الكتب التي لم نقف على تسجيلاتها:

-خلق أفعال العباد للبخاري.

-الرد على الجهمية للدرامي.

-نقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد، للدرامي.

-القاعدة المراكشية.

وغيرها كثير[1].

---

(١) ونجد هذا الموضع فرصة لحث الإخوة من طلاب الشيخ ممن قد تبلغهم هذه التفريغات، ممن حضروا للشيخ مجالس في السابق وسجلوا شيئًا منها أن يتواصلوا معنا، فحفظهم لعلم الشيخ أقل ما يجب للشيخ علينا وعليهم، وهو من بر التلاميذ بمعلميهم والذي لا يقل أهمية عن بر الأبناء بآبائهم متى اقترن بالنية الصالحة.

وجاءت المرحلة الثانية هذه، وهي سلسلة التفريغات الصوتية للدروس العلمية للشيخ محمد محمدي النورستاني حفظه الله تعالى، وستكون شاملة لجميع دروسه المسجلة، وهي على الترتيب التالي:

١- الأصول الثلاثة (**الشرح الأول ٨ مجالسًا**).

٢- الأصول الثلاثة (**الشرح الثاني ١١ مجلسًا**).

٣- الأصول الثلاثة (**الشرح الثالث ١٧ مجلسًا**).

٤- القواعد الأربع (**الشرح الأول مجلس واحدًا**).

٥- القواعد الأربع (**الشرح الثاني مجلسان**).

٦- القواعد الأربع (**الشرح الثالث مجلسان**).

٧- نواقض الإسلام.

٨- كشف الشبهات.

٩- كتاب التوحيد (**ولا زال مستمرًّا**).

١٠- العقيدة الواسطية (**الشرح الأول**).

١١- العقيدة الواسطية (**الشرح الثاني**).

١٢- العقيدة الواسطية (**الشرح الثالث**).

١٣- لمعة الاعتقاد.

١٤- العقيدة الطحاوية (**أربعون مجلسًا**).

١٥- القصيدة الحائية لابن أبي داود (**ثلاث مجالس**).

١٦- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.

١٧- الفتوى الحموية (**٢٣ مجلسًا**).

١٨- الجواب على الاعتراضات المصرية.

١٩- العقيدة التدمرية (**الشرح الأول**).

٢٠- **العقيدة التدمرية** (**الشرح الثاني، ولا زال مستمرًّا**).

٢١- نقض المنطق "الانتصار لأهل الأثر"، لابن تيمية (٢٣ مجلسًا).

٢٢- الإبانة الصغرى "الشرح والإبانة على أصول أهل السنة والديانة" لابن بطة (٣٨ مجلسًا).

٢٣- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم. (ولا زال مستمرًّا).

٢٤ - **شرح ابن أبي العز الحنفي على الطحاوية** (ولا زال مستمرًّا).

٢٥ - **شرح القصيدة النونية "الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية" لابن القيم الجوزية** (ولا زال مستمرًّا).

٢٦ - **شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية** (لم يكتمل).

٢٧- رسالة القضاء والقدر لابن عثيمين (مجلسان).

٢٨- رسالة قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، لابن تيمية.

٢٩- رسالة الأفعال الاختيارية من العباد لابن تيمية.

٣٠- فصل في الكلام على الاتحادية، لابن تيمية.

٣١- مسألة في حياة الخضر وادعاء لقائه، لابن تيمية.

٣٢- فصل في معنى الحي القيوم، لابن تيمية.

٣٣ - **الإخنائية، لابن تيمية** (ولا زال مستمرًّا).

٣٤- محاضرات في العقيدة والتوحيد.

٣٥- مجالس تفسير سورة العنكبوت.

٣٦- مجالس تفسير سورة الأحزاب.

٣٧- مجالس تفسير سورة الزمر.

٣٨- المنظومة البيقونية (٤ مجالس).

٣٩- نزهة النظر (الشرح الأول ١٦ مجلسًا).

٤٠- نزهة النظر (الشرح الثاني، لازال مستمرًا).

٤١- المداخل إلى كتب السنة.

٤٢- التعليق على كتاب المدخل إلى صحيح البخاري (٥ مجالس).

٤٣- عقيدة الرازيين.

٤٤- صريح السنة للطبري.

٤٥- السنة للمزني.

٤٦- الأصول الستة.

٤٧ - **سلسلة الحوار العلمي عن علم الكلام (لازال مستمرًا).**

٤٨ - **الصفات المعنوية.**

٤٩ - **قضية التفويض.**

وننبه هنا إلى أن هذه التفريغات معينة ومساعدة، إلا أنها لا تغني عن الدروس الصوتية والمرئية، ولا تكفي عن الاستماع إليها.

وما هذه التفريغات إلا جهد من بعض طلاب الشيخ حفظه الله تعالى، رغبوا في المشاركة في الخير، والمساهمة في خدمة العلم وأهله، فكتب الله أجورهم وشكر سعيهم، والشيخ حفظه الله تعالى لم يراجع هذه التفريغات.

وفي الختام: فإننا ندعو الله عز وجل أن يبارك للشيخ في علمه وعمله، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يبارك له في إتمام ما بقى، ونسأل الله له المزيد من فضله، وأن يمتعنا بعلمه، وأن يطيل عمره على طاعته، وأن يتقبل ذلك منه، وأن يكون ذخرًا له ورفعة وشرفًا يوم لقاء مولاه، ورؤيته سبحانه وحلول رضاه.

وشكر الله للإخوة القائمين على هذا المشروع وكتب أجرهم، وجعله من العلم الذي ينتفع به، وتجري لهم به الحسنات، وتضاعف بسببه الدرجات.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

للتواصل وإرسال الملحوظات والتصويبات

t.Shoroh.dr.alnorstany@tmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مسألةٌ سُئل عنها شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه قبل دخولهِ مصر وسُمعت من نقلهِ في رمضان سنة أربع وتسعين وستمائة في الأفعال الاختيارية من العبادِ تحصل بخلق اللهِ وبكسب العبد فما حقيقة كسب العبد وهل هو مؤثر في وجود الفعل فيصير العبد مشاركًا للخالق في خلق الفعل، فلا يكون العبد شريكًا كاسبًا بل شريكًا خالقًا وإن لم يكن مؤثرًا في وجود الفعل فقد وُجد الفعل بكماله بالحق سبحانه، وليس للعبد في التأثير شيء، كما ينسب إلى العبد الطاعة والعصيان، والكفر والإيمان، حتى يستحق الغضب والرضوان، فكيف السلوك أيها الهداة؟!

الشرح:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمُرسلين نبينا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين أما بعد:-

هذه الرسالة المُختصرة تتعلق بالأفعال الاختيارية من العباد، أفعال العباد تنقسم إلى قسمين سيذكرها شيخ الإسلام، أفعال اضطرارية وأفعال اختيارية ولا خلاف بين العلماء في كون أفعالهِ الاضطرارية لا يُحاسب عليها، كحركة المرتعش والمحموم وغيرهم لا يُحاسب عليها.

والقسم الثاني أفعاله الاختيارية، الأفعال الاختيارية هل هي فعله هل هي أفعاله أو لا؟ لماذا صارت أفعاله مع أنها بخلق الله عَزَّ وَجَلَّ؟ هذه المسألة فيها خلاف والمذاهب فيها أربعة.

مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أن أفعال الإنسان الاختيارية هي فعلٌ أو أفعالٌ له وخلقٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، كأنه فعلها بمشيئتهِ واختيارهِ وقدرتهِ وهاتان الصِفتان مخلوقتان لله عَزَّ وَجَلَّ، فأفعاله فعلٌ وأفعال له وخلق لله عَزَّ وَجَلَّ، هذا مذهب أهل السُّنَّة والجماعة.

مذهب الجبرية: أنه لا فرق بين أفعالهِ الاضطرارية وبين أفعاله الاختيارية كلها ليست له وليس له دخلٌ فيها إنما هو محل فعل الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له دخلٌ فيها وبالتالي لا تُنسب أفعالهُ إليهِ، هذا مذهب الجبرية، أفعاله تُنسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فعلًا وخلقًا.

على النقيض منهم مذهب المعتزلة: أن أفعاله الاختيارية أفعال الإنسان الاختيارية هي فعلٌ له وخلقٌ له، حتى يكون مُحاسبًا عليها، الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُردها ولا يُمكن أن يُريدها ولا تدخل تحت مشيئته وإنما هي فعلٌ وكسبٌ وخلقٌ من الإنسان.

وهناك مذهب رابع وهو مذهب الأشاعرة: أن أفعال الإنسان فعلٌ وكسبٌ فعلٌ وخلقٌ لله عَزَّ وَجَلَّ هي لله عَزَّ وَجَلَّ فعلًا وخلقًا، والإنسان لهُ كسب، وكونه مع الجبرية واضح لأنهم نسبوها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فعلًا وخلقًا، وبالتالي الأشاعرة لا ينسبون أفعال الإنسان إليه إنما ينسبونها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والذي ينسبونه إلى الإنسان هو الكسب، وبعد نسبة الفعل والخلق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا يبقى معنى للكسب؛ لأن الكسب هو الفعل كما يذكر شيخ الإسلام في بداية هذا الجواب أن الكسب هو الفعل الذي يعود منه على فاعلهِ نفعٌ، فأفعال الإنسان هي فعلهُ وكسبهُ ولكنها خلقٌ لله عَزَّ وَجَلَّ.

وهناك مذهب خامس: هذا المذهب للماتريدية، الماتريدية الأوائِل مع أهل السُّنَّة، هم مع أهل السُّنَّة في كون أفعال الإنسان تُنسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ خلقًا وتُنسب إلى الإنسانِ فعلًا هذا مذهبهم الماتريدية الأوائل، إذًا ليس هناك فرقٌ بينهم وبين أهل السُّنَّة، ولكن الماتريدية

المتأخرين وخاصةً بعد صدر الشريعة، يعني لم أجد قبل صدر الشريعة، وصدر الشريعة توفي سنة سبعمائة وتسعة وأربعين أو ثمانية وأربعين.

بعد صدر الشريعة عندهم أن ما يسمونه نسيته لكن هو عبارة عن تطبيق للمشيئة هذا الذي يريدونه عبارة عن تطبيق للمشيئة، أنت الآن متصف بصفة المشيئة والله عَزَّ وَجَلَّ جعلك مريدًا، هذه صِفة عامة، وتطبيق هذه الصِفة بأن تريد شيئًا مثلًا يعني أن الآن أردت أن أفعل هذا أي تذكرت الإرادة الجزئية، تطبيق هذه الصِفة هذه مخلوقة للإنسان، الصِفة عمومًا مخلوقة لله عَزَّ وَجَلَّ، وتطبيقها يسمونها الإرادة الجزئية هذه مخلوقة للإنسان، على كلامهم تكون جميع أفعال الإنسان مخلوقةً له؛ لأنها كلها بهذه الإرادة الجزئية، أراد أن يشرب، أراد أن يأكل، أراد أن يُصلي، أراد أن يقوم ويقعد، أليس كذلك؟! كل هذه الإرادة الجزئية، ولذلك ألَّف أحدهم أحد الماتريدية المعاصرين كتابًا في الرد عليهم وبيَّن أن مذهبهم أخطر من مذهب المعتزلة، وهو شيخ الإسلام في الدولة العثمانية الذي له كتاب في أربع مجلدات في مواقف العلم والعقل من الدين هو مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، له كتاب في هذا الحجم وهو مطبوع، رد على أصحابهِ ردودًا قوية، وهو كما قلت ماتريدي.

إذًا عندنا في أفعال الإنسان خمسة مذاهب: مذهب أهل السُّنَّة، ومذ هب الجبرية، ومذهب القدرية، ومذهب الأشاعرة، ومذهب الماتريدية المتأخرين، الآن يُنسب للماتريدية ككل مذهب متأخريهم وهذا خطأ، الآن عرفنا أن هناك كسبان: كسب أهل السُّنَّة وكسب الأشاعرة.

كسب الأشاعرة: هو ليس له معنى، لأن الكسب هو الفعل، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، إذًا أفعالنا كسبٌ لنا إذًا هي تنسب إلينا، شيخ الإسلام هنا حقق في نسبةِ أفعال الإنسان إليهِ كيف أنها كسب له مع أنها خلقٌ لله عَزَّ وَجَلَّ؟! هذه المسألة حققها، ولكن لم يتعمق في كونها يعني هي كسب للإنسان تُنسب إليهِ وهي فعله، لماذا صارت كسبًا له؟

هذه المسألة لم يتعمق فيها، فبالتالي إذا وجدنا كتابًا من كُتبهِ أو من كُتب ابن القيم فيها تركيز على هذه المسألة نقرأه، فهذه الرسالة لم يُعطي هذه المسألة حقها من التفصيل لم يُركز عليها.

إذًا هنا ما حقيقة كسب العبد؟ والكسب كما قلنا كسبان، كسب أهل السُّنَّة وكسب الأشاعرة، وكسب الماتريدية كسب أوائلهم معنا، وكسب متأخريهم يختلف؛ لأنه بالإرادة الجزئية والإرادة الجزئية مخلوقة للإنسان عندهم.

الطالب: ...

الشيخ: لا، يُنسب الفعل والخلق للإنسان مثل المعتزلة، وهناك رسالة لم تُطبع وعندي المخطوط في الفرق بين كسب الأشاعرة وكسب الماتريدية لأن هذه المسألة كثيرًا ما يُنسب إلى الماتريدية مذهب الأشاعرة كثير جدًا، كأن اتفاق الفريقين في كثير من المسائل يجهل بعض الناس لا يتعمق في الفروق بينهم.

وهذه المسألة مهمة لأن أوائلهم معنا، فلا يُنسب إليهم مذهب الأشاعرة، ومذهب الأشاعرة هو في الحقيقة جبر هو مذهب الجبرية، وهم يسمونه جبرٌ متوسط ومتأخروهم مثل الرازي وغيرهم يعترفون أنه هو الجبر، ولكنهم يقولون: نحن مجبورون على هذا الجبر، ليس عندنا إلا الوقوع فيما ذهب إليهِ المعتزلة أو هذا الجبر وهذا خطأ.

بما أن هذه المسألة تتعلق بالقدر نركز على مسألة وهي أننا نؤمن في مسائل القدر بما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وهذه المسائِل يُفصَّل فيها للفهم ولتحديد الموقف وإلا مسائِل القدر لا ينبغي أن يُتعمق فيها في ماذا؟ في ما ورد في النصوص نتعمق فيها ونؤمن بها ونحققها، ما لم يرد في النصوص لا نسترسل فإن قيل قلنا؛ لأن هذه مسألة القدر فيها سرٌ لم يُطلع الله عَزَّ وَجَلَّ أحدًا من خلقهِ عليهِ وهذا سيتبين معنا في بعض جوانبها، أما ما ورد في النصوص من أن الإنسان له مشيئة وله إرادة ويعمل باختيار.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، نؤمن بها إيمانًا جازمًا، ونؤمن أيضًا أن أفعالنا لنا، وسيأتي في تفصيل شيخ الإسلام المسائِل التي لم تذكر في النصوص لا نتعمق فيها، فأجاب هل كسب العبد مؤثرٌ في وجود الفعل؟ هذه المسألة أطال فيها شيخ الإسلام ولم يترك فيها شيئًا غامضًا، لأنه مشى فيها على أقل الأحوال بمعنى أن الكسب يُنسب إليهِ حتى ولو كان كذا وكذا ولكن ما هي حدود كسبهِ؟ هذه لم يُركز عليها، إذًا قدرة العبد مؤثرة في الفعل، وما معنى تأثير قدرة العبد في الفعل؟ هذا سيذكره بتقسيم التأثير لا قسمة العبد.

طبعًا هذه الرسالة مطبوعة في المجلد الثامن من مجموع الفتاوى، والإخوة الذين جمعوا هذه الرسائِل شرطهم ألا تكون هذه الرسائل مطبوعة، وهنا ذكروا في البداية أن هذه الرسالة مطبوعة ولكن فيها نقص فلذلك أرادوا نشرها.

المتن:

تلخيص الجواب: إن الكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله بنفع أو ضر، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها، والناس يقولون: فلان كسب مالا أو حمداً أو شرفاً كما أنه ينتفع بذلك، ولما كان العباد يكملون بأفعالهم ويصلحون بها، إذ كانوا في أول الخلق خلقوا ناقصين صح إثبات السبب، إذ كمالهم وصلاحهم عن أفعالهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعله وصنعه عن كماله وجلاله، فأفعاله عن أسمائه وصفاته ومشتقة منها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي»، والعبد أسماؤه وصفاته عن أفعاله فيحدث له اسم العالم والكامل بعد حدوث العلم والكمال فيه.

الشرح:

إذًا الفرق بين أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ وأفعال الإنسان أيضًا:

أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ عن كمالِهِ وجلالِهِ، أما أفعال الإنسان بها كماله وبها صلاحه، الإنسان يصلح ويكمل بأفعالِهِ والله عَزَّ وَجَلَّ أفعالهُ عن كماله وجلالِهِ.

المتن:

ومن هنا ضلت القدرية حيث شبهوا أفعاله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً بأفعال العباد، وكانوا هم المشبهة في الأفعال.

الشرح:

مع هذا الفرق شبَّهوا أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ بأفعال العباد ولم يُلاحظوا هذا الفرق أن العباد يكملون ويستكملون أنفسهم بأفعالهم وليس هكذا الله عَزَّ وَجَلَّ.

المتن:

وكانوا هم المشبهة في الأفعال، فاعتقدوا إن ما حسن منهم حسن منه مطلقاً، وما قبح منهم قبح منه مطلقاً بقدر علمهم وعقلهم.

الشرح:

هذا هو التحسين والتقبيح العقليين وهو أصلٌ عند المعتزلة، وما حسُن عندهم يجب أن يحسُن عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وما قبح عندهم يجب أن يقبح عند الله عَزَّ وَجَلَّ وعلى هذا يؤسسون دينهم.

المتن:

أو ما علموا أنها إنما حسنت منهم لإفضائها إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، وقبحت لإفضائها إلى ما فيه فسادهم، والله سبحانه متعال عن أن يلحقه مالا يليق به سبحانه.

الشرح:

هكذا في الفتاوى بهِ سبحانه، ويُشير بحرف فاء كما في الفتاوى، هنا بهِ سبحانهُ وهو صحيح، متعالٍ عن أن يلحقه ما لا يليق بهِ سبحانه هو صحيح، مع أن بسبحاته فسرها المحقق لكن ما ورد في الفتاوى في نسخة الفتاوى فهو صحيح.

المتن:

وأما قوله: هل هو مؤثر في وجود الفعل أو غير مؤثر؟

الشرح:

إذًا المسألة الأولى أن أنت بالنسبة لك أفعالك حسنة لأنها تؤثر فيك، وقبيحة لأنها تؤثر فيك أيضًا سلبًا، وهل أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ تؤثر فيه حتى تكون أفعال مثل أفعالك في الحُسن والقُبح؟ لا.

المتن:

وأما قوله: هل هو مؤثر في وجود الفعل أو غير مؤثر؟ فالكلام في مقامين.

الشرح:

هل هو أي الكسب، هل كسبهُ مؤثرٌ في وجود الفعل أم غير مؤثر؟ لاحظوا! الكسب مؤثر في وجود الفعل.

المتن:

أحدهما: أن هذا سؤال فاسد، إن أخذ على ظاهره؛ لأن كسب العبد هو نفس فعله وصنعه، فكيف يقال: هل يؤثر كسبه في فعله، أو هل يكون الشيء مؤثراً في نفسه؟ وإن حسب حاسب أن الكسب هو التعاطي والمباشرة وقصد الشيء ومحاولته، فهذه كلها أفعال يقال فيها ما يقال في أفعال البدن من قيام وقعود.

وأظن السائل فهم هذا وتشبث بقول من يقول: إن فعل العبد يحصل بخلق الله وكسب العبد، وتحقيق الكلام أن يقال: فعل العبد خلق لله وكسب للعبد.

الشرح:

وهذا مذهب أهل السُّنَّة: أن فعل العبد خلقٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وكسبٌ للعبد.

المتن:

إلا أن يراد أن أفعال بدنه تحصل بكسبه، أي بقصده وتآخيه، وكأنه قال: أفعاله الظاهرة تحصل بأفعاله الباطنة.

الشرح:

لا زال يتحدث في صِيغة السؤال، لا يُمكن أن يفرق بينهما إلا إذا أراد أن أفعاله هو الظاهرة تحصل بكسبهِ القلبي، ويريد بالكسب إرادته وقصده وحزمه.

المتن:

وغير مستنكر عدم تجديد هذا السؤال.

الشرح:

يقول: ليس مستنكرًا عليهِ ألا يُجوِّد ولا يُحسن السؤال.

المتن:

فإنه مزلة أقدام، ومضلة إفهام، وحسن المسألة نصف العلم، إذا كان السائل قد تصور السؤال، وإنما يطلب إثبات الشيء أو نفيه.

الشرح:

إذا كان السائل قد تصور المسئول أي المسألة التي يسأل عنها ويطلب إما إثبات الشيء أو نفيهُ.

المتن:

ولو حصل التصور التام لعلم أحد الطرفين.

الشرح:

أحد الطرفين إذا أحسن السؤال فهم أحد الطرفين وبقي أن يفهم الطرف الثاني وبالتالي سيسهل عليهِ فهم الجواب.

المتن:

والمقام الثاني في تحرير السؤال وجوابه: وهو أن يقال: هل قدرة العبد المخلوقة مؤثرة في وجود فعله؟ فإن كانت مؤثرة لزم الشرك، وإلا لزم الجبر، والمقام مقام معروف.

الشرح:

هل قدر العبد المخلوقة مؤثرةً في وجود الفعل؟ تغير أسلوب السؤال واستقام يعني هناك قدرة يعني بالقدرة يكون الفعل، فإن كانت مؤثرةً لزم الشرك وإلا لزم الجبر، ومذهب الجبرية لماذا قالوا أن أفعال الإنسان لله عَزَّ وَجَلَّ؟ قالوا إذا قلنا أن أفعال الإنسان له هذا يستلزم أن تكون أفعاله قد ظهرت بأفعالهِ هو، وهذا يستلزم الشِرك ويكون غير الله عَزَّ وَجَلَّ له أيضًا التأثير وبالتالي حرصًا من الجهم على تحقيق التوحيد قال: كلها تنسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فعلًا وخلقًا، هذا توحيد الجهم.

المعتزلة قالوا: بما أنه مسئول عن أفعالهِ ولا يُمكن أن يكون مسئولًا إلا إذا جعلناه خالقًا وفاعلًا، إذا جعلناه لأن الأمر إليهم هم الذي يُحددون، ويوزعون، فقالوا هو الخالق، فقيل لهم: الإيمان بعموم الخلق هذا من الإيمان بالقضاء والقدر قالوا: لا بأس أن نُخصص هذا ونجعله للإنسان حتى يكون هو المسئول عن أفعاله، وعرفنا أن الأشاعرة أرادوا أن يفرقوا بين الأمرين

ولم يستطيعوا، التوسط الذي جاءوا بهِ ليس له معنى وإن ما وقعوا فيهِ الجبر، إذًا فإن كانت مؤثرةً لزم الشِرك كما يقوله من؟ الجبرية، وإلا لزم، فأنت بين الشِرك والجبر.

المتن:

والمقام مقام معروف وقف فيه خلق من الفاحصين والباحثين والبصراء والمكاشفين، وعامتهم فهموا صحيحًا ولكن قل منهم من عبر فصيحًا.

الشرح:

إذًا المقام فعلًا مقامٌ صعب وليس سهلًا، صعب من ناحية تحديد الصحيح، أما الفهم فكما يقول شيخ الإسلام: الفهم قد فهمنا السؤال، ولكن كيف تنفصم عنه؟ كيف تحدد الصحيح؟ يقول شيخ الإسلام: هذا الذي قل في الناس، لكن قل منهم من عبَّر فصيحًا.

علمنا أن الجبرية لم يفهموا التوحيد ما هو التوحيد؟ أظن أن القول بتأثير الأسباب هذا يوقعهم في الشِرك، فأنكروا تأثير الأسباب في المُسببات لجبل بالتوحيد، وعلمنا أن المعتزلة لم يُحققوا حدود مسئولية الإنسان وأن هناك شيءٌ منه مُسير وشيءٌ منه مُخير، وأرادوا تحقيق مسئوليتهِ، فجعلوه هو الخالق، لذلك عندهم كما يقول: شيخ الإسلام: تعظيم الأوامر عندهم أكثر من الجبرية.

وحتى في أصول الفقه كلامهم في الغالب أحسن من كلام الأشاعرة أنفسهم لأنهم يركزون على العلل والتعليل ويُعظمون الأوامر والنواهي أكثر من الجبرية ومن تأثر بالجبرية وهذا الذي أوقعهم في الخروج، يعني هم النُسخة الثانية من الخوارج (المعتزلة) ولكنهم ضلوا في تحديد ظاهرة المسئولية عند الإنسان، وليس دينهم الاكتفاء بالنصوص، هذا أصلًا النصوص آخر ما يُفكر فيه عندهم وإلا ما دام أن الله أثبت لنا مشيئةً وقدرة وجعلها تحت مشيئته وقدرته العامة، ووجه إلينا الأوامر والنواهي.

إذًا المسألة منتهية، إذًا هناك جانب نحن مسئولون عنهُ في أفعالنا الاختيارية، فهمنا أو ما فهمنا نحن مأمورون ومكلفون، لا، هذا الجانب لا ينطلقون منه أصلًا، ولذلك ضلوا في هذا الباب، ولكن شيخ الإسلام من عدلهِ سيقارن بين القولين أيضًا أيهما أقرب إلى مذهبِ أهل السُّنَّة.

المتن:

فنقول: التأثير اسم مشترك قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع.

الشرح:

فإن كانت مؤثرةً هل قدرة العبد المخلوقة مؤثرةٌ في وجود فعلهِ فإن كانت مؤثرةً لزم الشِرك، إذًا يُفصِّل في التأثير حتى ينبين لنا أن قدرة العبد فعلًا مؤثرةٌ في فعلهِ.

المتن:

فنقول: التأثير اسم مشترك قد يراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع، فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة، فحاشا لله لم يقله سنى، وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال.

الشرح:

هذا المعنى الأول ذكر ثلاث معاني للتأثير، المعنى الأول: أن التأثير معناه الانفراد بالابتداعِ والتوحيد بالاختراع، وهذا المعنى لم يقله ولم يذهب إليهِ أحدٌ ولم يُثبت هذا التأثير للإنسانِ أحدٌ من أهل السُّنَّة، وإنما هو المعزوُ إلى أهل الضلال من هم؟ المعتزلة، المعتزلة قالوا: فعلهُ هو مُستقلٌ بهِ لا يُشاركه أحد، لا الله عَزَّ وَجَلَّ ولا غيره، هو المريد لأفعالهِ وهو الخالق لأفعالهِ.

المتن:

وإن أريد بالتأثير نوع معاونة إما في صفة من صفات الفعل، أو في وجه من وجوهه كما قاله كثير من متكلمي أهل الإثبات، فهو أيضًا باطل بما به بطل التأثير في ذات الفعل.

الشرح:

وإن أريد بالتأثير نوع معاونة إما في صفة من صفات الفعل، أو في وجه من وجوهه كما ذهب إليهِ بعضُ المتكلمين من أهل الإثبات هو أيضًا باطل، هذا المعنى الثاني، لماذا باطل؟ لما بهِ بطل التأثيرُ في ذاتِ الفعل، نحن قُلنا: التأثير في ذات الفعل هذا يجعل هذا المؤثر مُستقلًا، فقالوا تأثير قدرة الفعل في صفاتهِ وليس في ذاتهِ شيخ الإسلام يقول هذا أيضًا باطل لماذا؟

المتن:

إذ لا فرق بين إضافة الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل، وهل هو إلا شرك دون شرك وإن كان قائل هذه المقالة ما نحا إلا نحو الحق.

الشرح:

إذًا التأثير في الصِفة أقل من التأثير في الذات، شيخ الإسلام يقول: ليس له تأثيرٌ في شيء لا قليل ولا كثير، بمعنى القدرة، بمعنى الإبداع وبمعنى المعاونة في الإبداع، هذا المعنيان، المعنى الثالث؟!

المتن:

وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه الفعل بهذه القدرة كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بأوساط وأسباب.

الشرح:

في المجموع بوسائِط وهو الصحيح أحسن من هذا مع أن هذا صحيح أيضًا، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب.

المتن:

فهذا حق وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات، وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركا، وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركًا.

الشرح:

طبعًا الجهمية مذهبهم أن إثبات جميعِ الأسباب شرط، أي إثبات تأثير الأسباب شِرك عندهم، ولذلك هم لما يكتبون في كُتبهم الأصول في علم الكلام يُديرون الخلاف هنا أولًا بين الفلاسفة وبين المُسلمين، وهم يُمثلون المُسلمين.

الفلاسفة يقولون: أن التأثير تأثير الأسباب في مُسبباتها تأثيرٌ مُستقل؛ لأنهم يرون أن هذا الكون مُسيرٌ هكذا لأن هناك ربطًا بين الأسباب والمُسببات وهذا ليس فيهِ دخلٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، الأسباب هي التي تُسير المُسببات وتأثيرها ذاتي ليس من الله عَزَّ وَجَلَّ هذا مذهب الفلاسفة، هم يعتبرون الله عَزَّ وَجَلَّ علة العلل، أو المبدأ الأول، ولكن ليس له خلق وليس له تأثير، التأثير للأسباب.

فيأتي الأشاعرة والماتريدية لما يُديرون هذه المسألة يُديرونها بين الفلاسفة وبين المُسلمين، الكائنات والعالم يسير بتأثير الأسباب عند الفلاسفة وبتأثير الله عَزَّ وَجَلَّ عند المُسلمين، هكذا إدارة المسألة هكذا، صحيح ولكن تأثير الله عَزَّ وَجَلَّ كيف يكون؟

الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جعل الأسباب تؤثر في المُسببات وإذا أراد سلب هذا الأثر، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، سلب هذا؛ لأنه هو الذي أودع، فأهل

السُّنَّة يقولون: الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جعلها مؤثرة، وله أن يسلب هذا التأثير، إذًا الأسباب تؤثر بقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وبإذنِه وبجعلهِ هو إياها مؤثرةً.

ولاستبعاد الأشاعرة هذا التفريق يعتبرون أن القول بتأثير الأسباب في المُسببات شِرك وبالتالي يُنكرون الأسباب ويُنكرون تأثير الأسباب، التوحيد الصحيح ضيعوه في مثل هذه البدع، يعني ذا شرك وهذا شرك أما الشرك فقد فتحوا له الباب، حتى أوائلهم ليس فيهم ولكن فتحوا الباب.

المتن:

فهذا حق وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات، وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركًا، وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركًا.

الشرح:

وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركًا، لماذا ليس شركًا؟ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي جعلها مؤثرةً، إذًا ليست هي مؤثرة استقلالًا.

المتن:

وقد قال الحكيم الخبير: ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

الشرح:

فأخرجنا بهِ، لم يقل فأخرجنا من كل الثمرات؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل هذا سببًا وبهِ حصل هذا، فأخرجنا بهِ.

المتن:

﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل: ٦٠].

الشرح:

بهِ أيضًا.

المتن:

وقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

الشرح:

﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، إذًا العذاب حصل بهذه الواسِطة.

المتن:

فبين أنه المعذب، وأن أيدينا أسباب وآلات وأوساط وأدوات في وصول العذاب إليهم.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يموتن أحد منكم إلا آذنتموني حتى أصلي عليه، فإن الله جاعل بصلاتي عليه بركة ورحمة».

فالله سبحانه هو الذي يجعل الرحمة، وذلك إنما يجعله بصلاة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى هذا التحرير فنقول: خلق الله سبحانه أعمال الأبدان بأعمال القلوب، ويكون لأحد الكسبين تأثير في الكسب الآخر بهذا الاعتبار، ويكون ذلك الكسب من جملة القدرة المعتبرة في الكسب الثاني.

الشرح:

يعني لاحظت الفرق بين الكسبين، الكسب الأول: ما يكون يقوم بقلبك، وما يقوم بقلبك يُحرك بدنك، وهذا الكسب الثاني، الكسب الأول يؤثر في الكسب الثاني بهذا الاعتبار.

المتن:

فإن القدرة هنا ليست عبارة إلا عما يكون الفعل به لا محالة، من قصد وإرادة وسلامة الأعضاء والقوى المخلوقة في الجوارح وغير ذلك، ولهذا وجب أن تكون مقارنة للفعل، وامتنع

تقديمها على الفعل بالزمان؛ وأما القدرة التي هي مناط الأمر والنهي، فذاك حديث آخر ليس هذا موضعه.

الشرح:

طبعًا القدرة والاستطاعة بمعنى واحد بعضهم يفرق بينهما والصحيح أنهما بمعنى واحد، وهناك اختلاف في الاستطاعة والقدرة هل هي قبل الفعل أو بعده أو معه؟ إذًا هي ليست بعدهُ وهذا لم يذهب إليهِ أحد، هل هي قبله ومعه أو قبله فقط أو معه فقط؟ الأشاعرة ذهبوا إلى أيضًا، القدرة قبل الفعل فقط، هنا ماذا يقول شيخ الإسلام؟ فإن القدرة هنا ليست عبارة إلا عما يكون الفعل به لا محالة، من قصد وإرادة وسلامة الأعضاء هذه قدرة، وأما القدرة التي هي مناط الأمر والنهي، فذاك حديثٌ آخر ليس هذا موضعهُ.

يتحدث عنه في هذا المجلد خاص بالقدر، عند الأشاعرة القدرة قبل الفعل فقط، وليست معه، وعلى قولهم الذي لم يحج يلام أو يُلام؟ لا يُلام، الذي لم يُصلي لا يُلام، لا يلتزمونه، ولأنه ليس عنده القدرة، القدرة قبل الفعل، عفوًا فمذهبهم أن القدرة مع الفعل وليس قبل الفعل هذا مذهبهم.

وعند المعتزلة: القدرة قبل الفعل ولكنها صالحة للضدين، القول الأول: قول الجبرية وهم الجهمية ومن وافقهم ومعهم الأشاعرة، أنه ليس للعبد أي قدرة لا قبل الفعل ولا معه، لأن العبد عندهم لا اختيار له وأثبتوا للعبدِ قدرةً شكليةً غير مؤثرةً في الفعل أصلًا وتسمى عندهم فعلًا للعبد مجازًا، هذا مذهب الجبرية، طبعًا معهم الأشاعرة في الحقيقة ولكن لهم قول آخر يختلفون معهم صوريًا.

القول الثاني: هذا مذهب المعتزلة، القول الثاني هو قول المعتزلة يقولون: العبد خالقٌ لفعلهِ وأن القدرة تكون قبل الفعل وهي قدرةٌ عليه وعلى ضِده، القدرة قبل الفعل وهي صالحةٌ للضدين.

القول الثالث: قول الأشاعرة ومن تأثر بهم من الحنابلة وغيرهم، لا شك هذا الذي يُظَّن أنه مذهب أهل السُّنَّة أن القُدرة والاستطاعة مع الفعلِ لا يجوز أن تتقدمهُ ولا أن تتأخر عنه بل هي مقارنةٌ له وهي من الله عَزَّ وَجَلَّ وما يفعله الإنسان بها فهو كسبٌ له، ومذهب أهل السُّنَّة أن القدرة والاستطاعة تنقسم إلى قسمين وتتناول نوعين، أحدهما الاستطاعة الشرعية، وهي التي ذكرها شيخ الإسلام هنا بمعنى القصدِ والإرادة وسلامة الأعضاء والقوى المخلوقة في الجوارح وغير ذلك، هي بمعنى الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، وهذه القدرة هي مناط الأمر والنهي، وهي المُصححة للفعل، وهي تكون قبل الفعل، وهذه صالحة للضدين.

إلى هنا نحن مع من؟ مع المعتزلة ولكن نفترق عنهم أن القدرة عندهم واحدة وهي قبل الفعل وهي صالحة للضدين، وعند أهل السُّنَّة هذه قدرة، والقدرة الأخرى الاستطاعة الكونية وهي التي يجب معها وجود الفعل وهذه تكون مع الفعل، وهي مناط القضاء والقدر وبها يتحقق الفعل، ومن أمثلتها: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

ومن أمثلة القدرة الأولى قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، هذه الاستطاعة لو كانت هي المقارنة للفعل لم يجب حج البيت إلا على من حج، لأن القدرة مقارنة للفعل، فلا يكون من لم يحج عاصيًا بترك الحج حتى ولو كان له زاد وراحلة وهو قادرٌ على الحج لم يكن ملامًا على تركها ومن ترك الصلاة لا يكون ملامًا على

تركها لأن القدرة قبلها لا توجد، له أن يقول: أن القدرة التي تكون مع الفعل لو كانت موجودة لوُجد الفعل، واضِح، إذا لم توجد معناها أنه ليس عندي قدرة، يقول هنا: وأما القدرة التي هي مناط الأمر والنهي هذه الاستطاعة الشرعية، فذاك حديثٌ آخر ليس هذا موضِعه.

إذًا القدرة عند أهل السُنة تنقسم إلى قسمين قدرة قبل الفعل وقدرة مع الفعل، التي قبل الفعل: هي المُصححة والتي مع الفعل: هي المحققة، وعند الأشاعرة: القدرة مع الفعل فقط فلا يجوز أن تكون قبلها وهذا الذي يليق بمذهبهم في الجبر كما قلت لأن مذهبهم في الكسب كما قلنا في أفعال العباد قريب من مذهب الجبر، وعند الجبرية لا قدرة له، وعند المعتزلة له قدرة قبل الفعل وهي صالحة للضدين.

وما أدري سيأتي هنا كلام شيخ الإسلام أو لا، فهو يرى أن مذهب المعتزلة أقرب إلى السُّنَّة من مذهب الأشاعرة.

سـؤال: ...

الشـيخ: صالحة للضدين: تستطيع أن تصلي وتستطيع أن تذهب إلى المعصية، هذه القدرة تستطيع بها هذا وتستطيع بها هذا؛ لأن هي لم تكن صالحة للضدين فأنت تكون مجبورًا على أحدهما، صالحة للضدين هو معنى الاختيار أنت مُختار الآن.

المتن:

وبالتمييز بين هاتين القدرتين يظهر لك قول من قال: القدرة مع الفعل، ومن قال: قبله.

الشرح:

نعم قول من قال: القدرة مع الفعل هذا مذهب من؟ الأشاعرة، القدرة مع الفعل فقط.

المتن:

ومن قال قبلهم ومن قال: الأفعال كلها تكليف ما لا يطاق ومن منع ذلك، وتقف على أسرار المقالات.

الشرح:

ومن قال: الأفعال كلها تكليف ما لا يطاق هم من؟

الجبرية، ولكن لاحظنا التقارب الكبير بين مذهبهم وبين مذهب الأشاعرة، ولذلك الأشاعرة عندهم أن تكليف الإنسان بما لا يُطاق يجوز، أن تكليف العبد بما لا يُطاق يجوز، عند الجبرية هذا هو الحاصل، وعندهم يجوز هذا، لابد أن يكون بهذا وإلا يكون متناقضًا في مذهبه.

لذلك ذكر الرازي في "المحصول" أدلة كثيرة أظن أكثر من عشرة أو هي عشرة على جواز كون المكلَّف مكلفًا بما لا يُطيق، فهذا أسهل التعامل معها سهل، ثم جاء إلى أدلة المخالفين وردَّ عليهم فلما جاء إلى هذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: هذه ظواهر ظنية في مقابل قواطع عقلية فلا عبرةَ بها، هذا كلامه، المقابلة غالبة جائرة فاسدة، ظواهر سمعية في مقابل قواطع عقلية، سبحان الله، وتجدهُ كما يقولون: تجده مجبورًا على هذا المذهب، مذهب الجبر وتجده مجبورًا على هذا المذهب لماذا؟ لأن هناك خلل عنده في حدود تأثير قدرة العبد هو في الحقيقة مجبور، وهناك عنده خلل أيضًا في القدرة أو الاستطاعة فلابد أن يقول هذا.

المتن:

ومن قال: الأفعال كلها تكليف ما لا يطاق ومن منع ذلك، وتقف على أسرار المقالات.

الشرح:

إذًا الأفعال كلها بتكليف ما لا يُطاق عند الجبرية نصًا وعند الأشاعرة مقاربةً ومن منع ذلك وهم أهل السُّنَّة والمعتزلة والماتريدية، أهل السُّنَّة والجماعة والمعتزلة والماتريرية المتقدمون، حتى المتأخرون؛ لأن المتأخرين مع المعتزلة، ولكن المعتزلة والماتريدية هنا مع أهل السُّنَّة في هذه النقطة ولكن خلفيتهم تختلف، عندهم شرك في هذا الباب ولذلك هم قد يُسألوا، واعتكفوا على أصغار المقالات، وهذا تجده عند شيخ الإسلام إن شاء الله، تجد أنه يتحدث عن مسألة هنا ويربطها بمسألة هناك فتتفاوت، إذا حصل الرد ستفهم المسألة جيدًا، وإلا لماذا الرازي هنا وغيره يأتون بمثل هذه، ماذا يُكلفه لو أثبت مثلًا أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ؟ إذًا هناك خلفية هي التي تهزه وهي التي تجبره.

المتن:

وإذا أشكل عليك هذا البيان فخذ مثلًا من نفسك، أنت إذا كتبت بالقلم وضربت بالعصا ونجرت بالقدوم، هل يكون القلم شريكك أو يضاف إليه شيءٌ من نفس الفعل وصفاته ؟ أم هل يصلح أن تلغي أثره وتقطع خبره وتجعل وجوده كعدمه؟ أم يقال: به فعل وبه صنع ولله المثل الأعلى.

الشرح:

إذًا هو ليس شريكك في الفعل ومع ذلك فله أثر، هذا في تحصيلِهِ.

المتن:

ولله المثل الأعلى، فإن الأسباب بيد العبد ليست من فعله وهو محتاج إليها لا يتمكن إلا بها، والله سبحانه خلق الأسباب ومسبباتها.

الشرح:

المُسببات هي التي تكون بالأسباب، وبهي الآثار آثار الأسباب.

المتن:

وجعل خلق البعض شرطًا وسببًا في خلق غيره، وهو مع ذلك غني عن الاشتراط والتسبب، ونظم بعضها ببعض، لكن لحكمة تتعلق بالأسباب، وتعود إليها والله عزيز حكيم.

الشرح:

لماذا جاء الله عَزَّ وَجَلَّ وربط هذا بهذا السبب وهذا بهذا السبب؟ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ عزيزٌ حكيم، هذا يرجع إلى حكمته نحن ما ندري.

المتن:

وأما قوله: إذا نفينا التأثير لزم انفراد الله سبحانه بالفعل، ولزم الجبر، وطي بساط الشرع الأمر والنهي.

الشرح:

طبعًا هذه العبارة لم ترد عندنا نحن لأن بداية الرسالة هناك فرق بين ما ورد عندنا وبين ما ورد في نسخة الفتاوى السؤال الطويل فيها، وفيها هذا إنا إذا نفينا التأثير لزم انفراد الله سبحانه بالفعل كما يقوله الجبرية ولزم الجبر وطي بساط الأمر والنهي، لماذا يُؤمر ولماذا يُنهى مع أنه ليس له شيء؟

المتن:

فنقول: إن أردت بالتأثير المنفي.

الشرح:

بالنسبة للتأثير وضحت المسألة، هل قدرة العبدِ مؤثرةٌ أو غير مؤثرة؟ وضحت المسألة، حدود تأثيرِهِ هذا لم يُفصِّل فيهِ شيخ الإسلام هنا كما قلت.

فنقول: إن أردت بالتأثير المنفي التأثير على سبيل الانفراد في نفس الفعل، أو في شيءٍ من صفاته، فلقد قلت الحق، وإن كان بعض أهل الاستنان يخالفك في القسم الثاني.

الشرح:

بعض أهل الاستنان: يعني بعض أهل السُّنَّة، يخالفك في القسم الثاني في أي قسم؟ أو في شيءٍ من صِفاتهِ هذا سيأتي الحديث عنه.

المتن:

وإن أردت به أن القدرة وجودها كعدمها، وإن الفعل لم يكن بها ولم يصنع بها، فهذا باطل كما تقدم بيانه، وحينئذٍ لا يلزم الجبر بل ينبسط بساط الشرع، وينشر علم الأمر والنهي.

الشرح:

هذا من الأمر والنهي.

المتن:

وينشر علم الأمر والنهي ويكون لله الحجة البالغة، فقد بان لك أن إطلاق القول، بإثبات التأثير أو نفيه دون الاستفصال، وبيان معنى التأثير ركوب جهالات واعتقاد ضلالات، ولقد صدق القائل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وبان لك أن ارتباط الفعل المخلوق بالقدرة المخلوقة، ارتباط الأسباب بمسبباتها، ويدخل في عموم ذلك جميع ما خلقه الله في

السموات والأرض والدنيا والآخرة، فإن اعتقاد تأثير الأسباب على الاستقلال، دخول في الضلال، واعتقاد نفي أثرها وإلغاؤه ركوب المحال، وإن كان لقدرة الإنسان شأن ليس لغيرها كما سنومئ إليه إن شاء الله تعالى.

الشرح:

وإن كان لقدرة الإنسان شأن ليس لغيرها، سيأتي بيان شيخ الإسلام لها ومع ذلك كما قلت لم يُفصِّل في هذا هنا في هذه الرسالة، في هذه الرسالة بين أن فعل العبدِ سبب بهِ يكون الفعل وهو مؤثر الله عَزَّ وَجَلَّ فعلهُ بهِ وهو مؤثر في الفعل، إذًا يُنسب الفعل إلى الإنسان، هل هناك فرق بين هذا السبب وهو فعل الإنسان وبين الأسباب الأخرى؟ يقول قدرة الإنسان شأن ليس لغيرها، لها خصوصية وهذا سيأتي بيانه، ومع ذلك تبقى هناك حاجة لمزيد توضيح هذه المسألة.

المتن:

فلعلك أن تقول بعد هذا البيان: أنا لا أفهم الأسباب، ولا أخرج عن دائرة التقسيم والمطالبة بأحد القسمين، وما أنت إن قلت هذا إلا مسبوق بخلق من الضلال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]**، وموقفك هذا مفرق طرقٍ، إما إلى الجنة وإما إلى النار.**

الشرح:

فلعلك أن تقول بعد هذا البيان: أنا لا أفهم الأسباب، ولا أخرج عن دائرة التقسيم والمطالبة بأحد القسمين.

يقول شيخ الإسلام: وما أنت إن قلت هذا إذا سألت هذا السؤال إلا مسبوق بخلق من الضلال لست أنت الوحيد هنا، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

وموقفك هذا مفرق طرقٍ، إما إلى الجنة وهذا مذهب أهل السُّنَّة، وإما إلى النار وهذا مذهب الجبريةِ ومذهب المعتزلة؛ لأن مذهبهم ليس القول أن قولهم ليس قول أهل السُّنَّة، وقولهم هو قول الفرق التي تدخل في الثنتين وسبعين فرقة، وأقوالهم كلها الأقوال التي تندرج في أقوالهم كلها متوعدةٌ بالنار، كلها في النار متوعدةٌ بالنار يعني ليست قول أهل السُّنَّة، ليس سببًا موصِلًا إلى الجنة.

المتن:

فيعاد عليك البيان بأن لها تأثيرًا من حيث هي سبب، كتأثير القلم وليس لها تأثير من حيث الابتداع والاختراع، ونضرب لك الأمثال، لعلك تفهم صورة الحال، ويبين لك أن إثبات الأسباب مبتدعاتٍ هو الإشراك.

الشرح:

كما هو مذهب الفلاسفة.

المتن:

وإثباتها أسبابًا موصولات هو عين تحقيق التوحيد، عسي الله أن يقذف بقلبك نورًا ترى به هذا البيان ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، **فإن قلت: إثبات القدرة سبب نفي التأثير في الحقيقة.**

الشرح:

إثبات القدرة سببًا هو نفي التأثير في الحقيقة، هذا من كيسهِ هو لأن النفي، التأثير هذا خبر، إثبات القدرة سببًا هنا لو نكتب نقطتين(:) نفي التأثير في الحقيقة، إذا قلت أن القدرة سبب معناه أن ليس له تأثير.

المتن:

فإن قلت إثبات القدرة سببًا: هو نفي التأثير في الحقيقة فما بال الفعل يضاف إلى العبد؟ وما باله يؤمر وينهى؟ ويثاب ويعاقب وهل هذا إلا محض الجبر؟ وإذا كنت مشبهًا لقدرة الإنسان بقلم الكاتب، وعصا الضارب، فهل رأيت القلم يثاب أو العصا تعاقب؟ وأقول لك الآن إن شاء الله وجب هداك بمعونة مولاك، وإن لم تطلع من أسرار القدر إلا على مثل ضرب الأثر.

الشرح:

خرق الإبرة: ثقبها أي شيئًا يسيرًا أو دقيقًا، فأقول لك الآن إن شاء الله وأقول لك الآن إن شاء الله وجب هداك بمعونة مولاك، وإن لم تطلع من أسرار القدر على قدرٍ يسير.

المتن:

وألق السمع وأنت شهيد، عسى الله أن يمدك بالتأييد، اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة وله مشيئة ثابتة، وله إرادة جازمة وقوة صالحة.

الشرح:

إذًا هناك ثلاثة أمور: له مشيئة ثابتة، وله إرادة جازمة، وله قوةٌ صالحة، ثلاثة أمور اجتمعت فيهِ في فعل الإنسان، إذا لم تجتمع في قوتهِ، في فعلهِ هذه الأمور وهي في الحقيقة أمرانِ المشيئة والقدرة إذا لم تجتمع في فعل هذان الأمرانِ لا يكون مسئولًا عنده القدرة ولكن ليس عنده مشيئة هذا مجنون، عنده مشيئة ولكن ليس عنده القدرة هذا ليس مسئول، إذا اجتمعت في فعلهِ هذان الأمران القدرة والمشيئة فهو مسئولٌ عن فعلهِ.

المتن:

وقد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد في غير ما آية كقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨- ٢٩] ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٩]، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦].

الشرح:

إذًا الله عَزَّ وَجَلَّ أثبت مشيئة الإنسان وجعلها مندرجةً تحت مشيئتهِ العامة، المهم أنه أثبت أن له مشيئة، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]

المتن:

ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن يعملون، يفعلون، يؤمنون، يكفرون، يتفكرون، يحافظون، يتقون، وكما أنا فارقنا مجوس الأمة بإثبات أنه تعالى خالق، فارقنا الجبرية بإثبات أن العبد كاسب فاعل صانع عامل، والجبر والمعقول الذي أنكره سلف الأمة وعلماء السنة هو أن يكون الفعل صادرًا علي الشيء، من غير إرادة ولا مشيئة ولا اختيار.

الشرح:

وهذا مذهب من؟ مذهب الجبرية وقريب منه مذهب الأشاعرة، أن فعل الإنسان صادرٌ عنه من غيرِ إرادةٍ ولا مشيئةٍ ولا اختيار هذا مذهب الجبرية وقريب منه مذهب الأشاعرة.

المتن:

مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح، وحركة بإطباق الأيدي ومثله في الأناسي حركة المحموم والمفلوج والمرتعش فإن كل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الإنسان وقعوده.

الشرح:

طبعًا نحن عندنا يجب تفرقة بديهتِهِ بين قيام الإنسان هذا صحيح، ولكن ما ورد في المجموع أصح فإن كل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الإنسان وقعوده.

المتن:

بين قيام الإنسان وقعوده وصلاته وجهاده، وزناه وسرقته وبين انتعاش المفلوج وانتفاض المحموم.

الشرح:

كل عاقل يجد تفرقة بين أفعالِهِ الاختيارية وأفعاله الاضطرارية، صلاته وجهاده، وزناه وسرقته وبين انتعاش المفلوج وانتفاض المحموم، لو كان في اختياره لم ينتعش.

المتن:

ونعلم أن الأول قادر على الفعل مريد له مختار، وأن الثاني غير قادر عليه ولا مريد له ولا مختار، والمحكي عن جهم وشيعته الجبرية أنهم زعموا، أن جميع أفاعيل العباد قسم واحد، وهو قول ظاهر الفساد، وبما بين القسمين من الفرقان انقسمت الأفعال، إلى اختياري، واضطراري، واختص المختار منها بإثبات الأمر والنهي عليه، ولم يجئ في الشرائع ولا في كلام حكيم أمر الأعمى بنقط المصحف.

الشرح:

واختص المختار، والذي هو ليس مضطرا أي بالتعاقب.

المتن:

ولم يجئ في الشرائع ولا في كلام حكيم أمر الأعمى بنقط المصحف والمقعد بالاشتداد أو المحموم بالسكون، وشبه ذلك، وإن اختلفوا في تجويزه عقلًا أو سمعًا فإنما منع وقوعه بإجماع العقلاء أولى العقل من جميع الأصناف.

فإن قيل: هب أن فعلي الذي أردته واخترته هو واقع بمشيئتي وإرادتي أليست تلك الإرادة وتلك المشيئة من خلق الله تعالى؟ وإذا خلق الأمر الموجب للفعل فهل يتأتى ترك الفعل معه؟ أقصى ما في الباب أن الأول جبرٌ بغير توسط الإرادة من العبد، وهذا جبر بتوسط الإرادة، فنقول: الجبر المنفي هو الأول كما فسرناه، وأما إثبات القسم الثاني، فلا ريب فيه عند أهل الاستنان والآثار، و أولى الألباب والأبصار، لكن لا يطلق عليه اسم الجبر خشية الالتباس بالأمر الأول.

الشرح:

الأمر الأول: جعلها من قبيل الأفعال الاضطرارية.

المتن:

وفرارًا من تبادر الأفهام إليه وربما سمى جبرًا إذا أمن من اللبس وعلم القصد، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الدعاء المشهور عنه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: اللّٰهم داحي المدحوات، وباري المسموكات، جبار القلوب على فطراتها شقيها وسعيدها.

الشرح:

طبعًا بهذا لا يثبت عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه مثل هذه العبارات.

سؤال: ...

الشيخ: الذي له السُمك، الذي له جسم المدحو هو الذي المبسوطات، هو الذي بسط المبسوطات، وهو الذي خلق الأجسام، الذي له السُمك هي الأجسام، أقول مثل هذه الألفاظ يعني من اللفظ تعلم أنه ليس من تكلف أولئك، ولا يثبت عن علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وشيخ الإسلام قد يكون اطلع على سند لأن هذا الذي عندنا هو مُرسل يعني هو من رواية سلامة الكِندي عن علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه ولا يُعرف له سماعٌ منه.

وأخرجه ابن أبي شيبة في المُصَنَّف من وجهٍ آخر عن رجل عن علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وفيه من لا يُعرف، يعني ضعف يسير في الآثار لا يضر إذا كان مثلًا ضعيفًا يرد عن عليٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه مثل رواية كُميل عنه الأثر المعروف، أما رجل لا يُعرف ورجل لم يسمع منه أصلًا إن لم يكن هناك سند آخر نجزم بأنه ليس لعلي بن أبي طالب إن لم يكن هناك سند آخر قد يكون هناك سند آخر؛ لأن شيخ الإسلام يقول: في الدعاءِ المشهور عنه.

المتن:

فبين أنه سبحانه جبر القلوب على ما فطرها عليه.

الشرح:

جبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها هذا هو الشاهد، يعني هنا يُبين شيخ الإسلام أن إطلاق الجبر على الجانب الإجباري للإنسان لا بأس ولكن إطلاق الجبر قد يُفهم أنك تنفي أفعال الإنسان الاضطرارية، قد يُفهم منه أنك تنفي أفعاله الاختيارية أيضًا عنه ولذلك لا ينبغي أن يُطلق هذا، أما إذا أُمن اللبس فهناك جانب مُسير، جانبٌ فيه مُسير وجانبٌ فيهِ مُخير.

المتن:

فبين أنه سبحانه جبر القلوب على ما فطرها عليه من شقاوة أو سعادة يعني الفطرة الثانية ليست الفطرة الأولى، وبكلا الفطرتين، فُسِّر قوله صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة»، وتفسيره بالأولى واضح.

الشرح:

الفطرة الأولى: التي خُلق عليها، والتي جُبل عليها، والفطرة الثانية: التي انبنت عليها وفيها شيءٌ من الكسب للإنسان يعني الفطرة الثانية، وبكلا الفطرتين فُسِّر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل مولود يولد على الفطرة»، فطرة خلق عليها وفِطرة له شيءٌ من الاكتساب فيها، وتفسيرهُ بالأولى واضِح، وهذا هو الصحيح، لأن فيه: «فأبواه ينصرانه ويهودانهِ ويمجسانه»، معناه أن الفطرة الثانية قد تتغير قد يُغيرها.

المتن:

وقال محمد بن كعب القُرظِيِّ وهو من أفاضل تابعي أهل المدينة وأعيانهم، وربما فضل على أكثرهم في قوله: الجبار، قال: جبر العباد على ما أراد، وروى ذلك عن غيره، وشهادة القرآن والأحاديث، ورؤية أهل البصائر والاستدلال التام لتقليب الله سبحانه وتعالى قلوب العباد، وتصريفه إياها وإلهامه إياها فجورها وتقواها، وتنزيل القضاء النافذ من عند العزيز الحكيم، في أدنى من لمح البصر على قلوب العالمين، حتى تتحرك الجوارح بما قضي لها وعليها بين غاية البيان، إلا لمن أعمى الله بصره وقلبه.

فإن قلت: أنا أسألك علي هذا التقدير بعد خروجي عن تقدير الجبر الذي نفوه وأبطلوه وثباتي على ما قالوه وبينوه كيف انبنى الثواب والعقاب على فعله، وصح تسميته فاعلًا على حقيقته وانبنى فعله على قدرته؟ فأقول والله الهادي إلى سواء السبيل: اعلم أن الله تعالى خلق

فعل العبد سببًا مقتضيًا لآثار محمودة أو مذمومة، والعمل الصالح مثل صلاة أقبل عليها بقلبه ووجهه وأخلص فيها وراقب، وفقه ما بنيت عليه من الكلمات الطيبات، والأعمال الصالحات، يعقبه في عاجل الأمر نور في قلبه، وانشراح في صدره، وطمأنينة في نفسه ومزيدًا في علمه، وتثبيت في يقينه، وقوة في عقله إلي غير ذلك من قوة بدنه، وبهاء وجهه، وانتهائه عن الفحشاء والمنكر، وإلقاء المحبة له في قلوب الخلق، ودفع البلاء عنه وغير ذلك مما يعلمه ولا نعلمه.

الشرح:

هذه كلها آثار فعلِهِ.

المتن:

ثم هذه الآثار التي حصلت له من النور والعلم واليقين وغير ذلك أسباب مفضية إلى آثار أخر من جنسها ومن غير جنسها أرفع منها وهلم جرا، ولهذا قيل: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وكذلك العمل السيئ مثل الكذب مثلًا يعاقب صاحبه في الحال بظلمة في القلب وقسوة وضيق في صدره، ونفاقًا واضطرابًا ونسيان ما تعلمه، وانسداد باب علم كان يطلبه، ونقصًا في يقينه وعقله، واسودادًا وجهه وبغضه في قلوب الخلق، واجترائه على ذنب آخر من جنسه أو غير جنسه، وهلم جرا، إلا أن يتداركه الله برحمته.

الشرح:

سبحان الله! آثار مدمرة أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستر، وتلك آثار مهمة في غاية الأهمية هذه كما قال: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها.

المتن:

فهذه الآثار هي التي تورثها الأعمال، هي الثواب والعقاب، وإفضاء العمل إليها واقتضاؤه إياها، كإفضاء جميع الأسباب التي جعلها الله سبحانه وتعالى أسبابًا إلى مسبباتها، والإنسان إذا أكل أو شرب حصل له الري والشبع، وقد ربط الله سبحانه وتعالى الري والشبع بالشرب والأكل ربطاً محكمًا، ولو شاء ألا يشبعه ويرويه مع وجود الأكل والشرب فعل، إما ألا يجعل في الطعام قوة، أو يجعل في المحل قوة مانعة، أو بما يشاء سبحانه وتعالى.

الشرح:

إما أن يسلب الطعام الأثر وإما أن يجعل المحل يمتنع من الآثار.

المتن:

ولو شاء أن يشبعه ويرويه بلا أكل ولا شرب أو بأكل شيء غير معتاد فعل، كذلك في الأعمال: المثوبات والعقوبات حذو القذة بالقذة، فإنه إنما سمى الثواب ثوابًا؛ لأنه يثوب إلى العامل من عمله، أي يرجع، والعقاب عقابًا؛ لأنه يعقب العمل، أي يكون بعده، ولو شاء الله ألا يثيبه على ذلك العمل، إما بألا يجعل في العمل خاصة تفضي إلى الثواب، أو لوجود أسباب تنفي ذلك الثواب، أو غير ذلك لفعل سبحانه وتعالى وكذلك في العقوبات، وبيان ذلك: أن نفس الأكل والشرب باختيار العبد ومشيئته، التي هي من فعل الله سبحانه وتعالى أيضًا.

الشرح:

العبارة فيها إشكال وبيان ذلك أن نفس الأكل والشُربِ باختيار العبد ومشيئتِهِ التي هي من فعل الله أيضًا، الإطلاق عليها أنها فعله باعتبار أنه خلقه وإلا قد عرفنا أن أفعال الإنسان لا تُنسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فعلًا، من أفعال الإنسان قبائح والله عَزَّ وَجَلَّ منزهٌ عنها، فلذلك الجبرية لما يُلزمون بهذا ليس عندهم جواب، يعني أفعال الإنسان القبيحة هل الله عَزَّ وَجَلَّ هو

الذي فعلها؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، فهي ليست فعلهُ ولكن بما أنها خلقه بهذا الاعتبار أطلق شيخ الإسلام أنها فعله لأن الخلق هو الفعل من هذا الاعتبار التي هي من فعل الله عَزَّ وَجَلَّ أي باعتبار أنه خلقه.

المتن:

وحصول الشبع عقب الأكل ليس للعبد فيه صنع البتة، حتى لو أراد دفع الشبع بعد تعاطي الأسباب الموجبة له لم يطق، وكذلك نفس العمل هو بإرادته واختياره، فلو شاء أن يدفع أثر ذلك العمل وثوابه بعد وجود موجبه لم يقدر، فهذه حكمة الله تعالى ومشيئته وسنته في جميع الأسباب في الدنيا والآخرة، لكن العلم بالأعمال النافعة في الدار الآخرة، والأعمال الضارة أكثره غيب عن عقول الخلق، وكذلك مصير العباد ومنقلبهم بعد فراق هذه الدار.

الشرح:

هذا كله غيب ولذلك فبعث الله...؟

المتن:

فبعث الله سبحانه وتعالى رسله، وأنزل كتبه مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وحكمته في ذلك تضارع.

الشرح:

تضارع أي تساوي أو تقارن.

المتن:

وحكمته في ذلك تضارع حكمته في جميع خلق الأسباب والمسببات، وما ذاك إلا أن علمه الأزلي ومشيئته النافذة وقدرته القاهرة اقتضت ما اقتضته.

الشرح:

إلا أن علمه الأزلي ومشيئته النافذة وقدرته القاهرة كلها معطوفة على؟!

المتن:

وقدرته القاهرة اقتضت ما اقتضته وأوجبت ما أوجبته من مصير أقوام إلى الجنة، بأعمال موجبة لذلك منهم، فخلقهم وخلق أعمالهم وساقهم بتلك الأعمال إلى رضوانه، وكذلك أهل النار كما قال: الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم لما قيل له: ألا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فييسر لعمل أهل الشقاوة».

المتن:

فبين صلى الله عليه وسلم أن السعيد قد ييسر للعمل الذي يسوقه الله تعالى به إلى السعادة، وكذلك الشقي، وتيسيره له هو نفس إلهامه ذلك العمل وتهيئة أسبابه.

الشرح:

نفس إلهامه ذلك العمل وتهيئة أسبابه، الأسباب موجودة فله قدرة ومشيئة، يستطيع أن يعمل بها العمل الصالح والعمل السيء، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ لحكمتهِ وعدلهِ لم يوفقه، المؤمن زاده توفيقًا وهذا خذله، ولكن الحجة قائمةٌ عليهِ لوجود قدرتهِ ومشيئتهِ ولوضوحِ السبيل؛ لأنه مأمور ومكلف أن يسلك هذا السبيل، والأسباب كلها مهيأة له ومع ذلك لم يسلكها.

المتن:

وهذا هو تفسير خلق أفعال العباد، فنفس خلق ذلك العمل هو السبب المفضي إلى السعادة أو الشقاوة، ولو شاء لفعله بلا عمل.

الشرح:

ولو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لفعله أي لأوصل إلى السعادةِ لفعله أي السعادة بلا عمل، الضمير يرجع إلى السعادة.

المتن:

بل هو فاعله.

الشرح:

بل هو فاعله: أي إن الله عَزَّ وَجَلَّ سيفعل هذا، أي إفضاء بعض خلقهِ إلى السعادة بدون عمل أي هذا سيكون كمثال.

المتن:

فإنه ينشئ للجنة خلقًا لما يبقى فيها من الفضل.

الشرح:

النار كما تقول: هل من مزيد؟ الله عَزَّ وَجَلَّ يضع عليها قدمهُ فينتهي ما فيها من المزيد فيلتقي طرفاها، أما بالنسبةِ للجنة فيُنشئ لها خلقًا ويُسكنهم فيها ولذلك من قال لا إله إلا الله ولو كان من أفجر الفجَّار أولى بالجنة من هذا الذي لم يقلها ولا مرة، هذه الأمور هي التي تجعل المؤمن تجعله يطمع في رحمة الله أكثر، ولو كان من كان، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ينشئ لها خلقًا آخر بعدما يُدخل من كان في قلبهِ أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثلاث مرات! أما النار فكما

ذكرنا يعني يضع فيها قدمه وينتهي ما فيها من الفضا وهذا المثال أن الله عَزَّ وَجَلَّ أفضى بعض خلقهِ إلى السعادة بدون عمل.

المتن:

يبقى أن يقال: فالحكمة الكلية التي اقتضت ما اقتضته من الأسباب الأُول.

الشرح:

طبعًا الحكمة الكلية أما أن تتحدث عم فلان وفلان لماذا هذا صار شقيًا؟

هذا الذي يقول عنه أهل السُّنَّة: هذا سرٌ لم يُطلع الله عَزَّ وَجَلَّ عليهِ أحدًا، لماذا هذا الرجل اختُص بهذا وهذا لم يُختص بهذا لماذا؟ هذا يرجع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ هو أعلم بحال هذا وبحال هذا.

أما الحكمة الكلية...؟

المتن:

يبقى أن يقال: فالحكمة الكلية التي اقتضت ما اقتضته من الأسباب الأُول وحقائق ما الأمر صائر إليه في العواقب، والتخصيصات والتمييزات الواقعة في الأشخاص والأعيان، إلي غير ذلك من كليات القدر، التي لا تختص بمسألة خلق أفعال العباد، وليس هذا الاستفتاء معقودًا لها، وتفسير جمل ذلك لا يليق بهذا الموضع، فضلًا عن بعض تفصيله، ويكفي العاقل أن يعلم أن الله عز وجل عليم حكيم رحيم.

الشرح:

نعم هذا التفصيل لم يدخل فيه ولكن هذا الذي ذكره فائدة عظيمة جدًا، ويكفي العاقل...؟

المتن:

ويكفي العاقل أن يعلم أن الله عز وجل عليم حكيم رحيم، بهرت الألباب حكمته ووسعت كل شيء رحمته، وأحاط بكل شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه وإن لله تعالى في قدره سرًا مصونًا، وعلمًا مخزونًا احترز به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريته، وإنما يصل به أهل العلم وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك.

الشرح:

يعني إنما يصل أهل العلم بهِ أي بالله عَزَّ وَجَلَّ وأرباب ولايته إلى جمل من ذلك وجوامع وكليات يفهمونها من نصوص الكتاب والسُّنَّة، قد يدركون بعض الحقائِق التي لا يُدركها غيرهم لما عندهم من العلم، قد يؤذن لبعضِهم من الأنبياءِ والرُسل هذا يُقيد بالأنبياء والرُسل، ولأن غيرهم كيف يُؤذن له؟ هل يؤذن له شرعًا ويوحى إليه؟ لا يوحى لأحد بعد الأنبياء والرُسل، وهل يؤذن له كونًا؟ الإذن الكوني لا يدل على كونهِ ممدوحًا، لذلك أنا تدبرت في الجملة هذه ثم رأيت أنه لم يمثل إلا بالأنبياء، وبالتالي هذا يُخصص بالأنبياء والرُسل؛ لأن ما عند الأنبياءِ والرُسل من أسرار القدر كما سيأتي في الأثر، هل كلهم أُذِن لهم أن يُخبروه عنا، ما نحتاج إليه يُخبرنا عنه، وما لا نحتاج إليهِ في الفعلِ وفي العمل وفي الطريق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لم نُخبر عنهُ، وخاصةً تخصيص فلان عن علان بشيء لم نُخبر عنه.

المتن:

وربما كلم الناس في ذلك على قدر عقولهم.

الشرح:

كلم الناس أي هذا الذي أُذن له.

المتن:

وربما كلم الناس في ذلك على قدر عقولهم وقد سأل موسى وعيسى وعزير ربنا تبارك وتعالى عن شيء من سر القدر، و أنه لو شاء أن يطاع لأطيع ولو شاء ألا يُعصى لما عُصي، وأنه قد أمر أن يُطاع وأنه مع ذلك يعصى؛ فأخبرهم سبحانه وتعالى أن هذا سره، وأنه لا يُسأل عن سره.

الشرح:

طبعًا هذا لم أقف علي حديثٍ مرفوعٍ في هذا، وما أدري ما هو مصدر شيخ الإسلام في هذا، والمحقق الشيخ محمد نذير أيضًا لم يُتحفنا بما عودنا في كُتبهِ وفي تحقيقاتهِ فهل هو أثر؟

الله أعلم، طبعًا إذا لم يكن هناك حديثٌ مرفوع في مثل هذه الأمور فنحن لسنا مُلزمين بالتقيد بما يذكره شيخ الإسلام، أما إذا كان هناك أثر نقول بهِ، عمومًا ذكر شيخ الإسلام أن هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الرسل الكرام اثنان منهم من أولي العزم، سألوا الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُطلعهم على هذا السِر أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد ألا يعصى فلن يعصى، ومع أنه يكره المعصية يكره أن يُعصى فلا يرضى لعباده الكفر، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، مع ذلك لماذا يُعصى؟ فأخبره سبحانه أن هذا سرهُ وأنه لا يُسأل عن سِرهِ.

المتن:

وفي هذا المقام، تاهت عقول كثير من الخلائق، وفيه ضل القائلون بقدم العالم، وأن صانعه موجب بذاته.

الشرح:

عندهم أنه موجبٌ بذاتِهِ بمعنى مضطرٌ على هذه الأعمال، يجعلون خلق العالم من قبيل أفعال الإنسان الاضطرارية التي لا خيار لهُ في دفعها، فالله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يصدر عنهُ هذه الأمور، لا باختيارِهِ وهذا معنى موجبٌ بذاتِهِ أي ليس باختيارِهِ.

المتن:

ومقتضى بنفسه اقتضاء العلة للمعلول.

الشرح:

اقتضاء العلة للمعلول، العلة إذا وجد الكسر فلابد أن يوجد الانكسار، هل يُمكن للكسر أن يوجد ويمنع الانكسار؟ ليس إليه، هذا الأمر ليس إليه، إذًا الله عَزَّ وَجَلَّ ليس له؟! أعوذ بالله، على هذا بنوا وقالوا: ليس في الإمكانِ أبدع مما صُنع أو على القولةِ المعروفة: ليس في الإمكان أبدع مما كان، وهذا قاله من؟ يقوله الفلاسفة، ومن المنتسبين إلى الإسلام بل من أشهرهم الغزالي أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، أطلق هذه الكلمة ليس في الإمكان أبدع مما كان وتعرفون تأثرهُ بالفلاسفة مع أنه رد عليهم.

أحد الإخوة كذا الزهراني نسيت اسمه له رسالة في بداية الانحراف أظن في القرنين الثامن عشر والتاسِع عشر أو قريب من هذا، ذكر فيه أن كثيرًا من العلماء في ذلك الوقت انشغلوا بأمور ليس فيها نفعٌ لعموم الأمة منها: أنهم أشغلوا أنفسهم بالحواشي وذكر أن كثيرًا من المُحشين أو من مدرسي العلوم هو ألفوا في الجواب عن هذه المقولة: "ليس في الإمكان أبدع

مما كان"، لماذا أطلقها الغزالي؟ رسائل في هذا في تبرير هذه المقولة، يا أخي باختصار شديد: نقول أنه متأثر فيها وانتهينا، رسائل كثيرة في تبرير هذه المقولة، وأنت لما تقرأ تلك الرسائل وترى ما فيها من التعقيد والغموض تظن أن فيها شيئًا، ليس فيها شيء، نعم ليس في الإمكان أبدع مما صُنع، هذا مبنيٌ على قول الفلاسِفة.

المتن:

وأنه ليس في الإمكان أبدع مما صنع، ودب بعض هذا الداء إلى بعض أهل الكتاب وأتباع الرسل، فقد قرروا انحصار الممكن في الموجود وكل ذلك طلبًا للاستراحة من مؤونة تعليل الأفعال الإلهية، ووجود الأسباب الحادثة للأمور الحادثة.

الشرح:

فزعم انحصار الممكن في الموجود، وأن الغير موجود لم يكن ممكنًا، وكل ذلك طلبًا للاستراحة من مؤونة تعليل الأفعال الإلهية؛ لأنه إذا قال: غير الموجود لم يكن ممكنًا وهذا الموجود هكذا أمكن لا يُمكن أن تسأله عن علة هذا وعن علةِ هذا، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ على فعلهِ مجبور على هذا، ما هو السبب وما هي الحكمة؟ ما يُمكنك أن تسأله لأنه سد عليك بابًا، هذا لأن الله عَزَّ وَجَلَّ عنده مجبورٌ على هذا ليس له حكم.

المتن:

وعلله أهل القدر بعللهم العليلة في التعديل والتجويز.

الشرح:

يُقابلهم من؟ من فتح هذا الباب على مصراعيه وهم المعتزلة، وهم أهل القدر، أهل القدر دخلوا في تعليم جميع أفراد الله عَزَّ وَجَلَّ، وتمييز ما قد يكون لائقًا به وقد لا يكون لائقًا بهِ، حتى من المخلوقات ما لا يكون لائقًا بهِ أخرجوه من كونهِ مخلوقًا، هذا منهج المعتزلة، والأول

منهج الجبرية، لذلك يقول شيخ الإسلام: وعلله أهل القدر بعللهم العليلة في التعديل والتجويز، هذا العمل لا يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ لأنه ظلم يجعله جورًا وظلمًا وهذا يجب عليهِ لأنه عدلٌ، يجب عليهِ لأنه عدلٌ وهذا هو التعديل والتجوير.

المتن:

ووجوب رعاية الصالح، أو الأصلح.

الشرح:

هذا سبق أن ذكرنا أن هذا عند المعتزلة يجب على الله عَزَّ وَجَلَّ أن يراعي الأصلح للعباد، يجب عليه هكذا قالوا.

المتن:

ولم يستقم لواحد من الفريقين أصلهم، ولم يطرد لهم، ومن هنا ذهب أهل التثنية والتمجس إلى الأصلين، والقول بقدم النور والظلمة، وسلم بعض السلامة وإن كان فيه نوع من ظن السوء بالله وضرب من الجفاء أكثر متكلمي أهل الإثبات حيث ردوا الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة.

الشرح:

طبعًا هؤلاء هم الجبرية ومن معهم هذا الذي يتحدث عنهم شيخ الإسلام، هم الجبرية ومن معهم.

المتن:

حيث ردوا الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة وإن إنشاءها جميع الجائزات واقتضاءها كل الممكنات على نحو واحد ووتيرة واحدة وإنها بذاتها تخصص وتميز.

الشرح:

هذا مذهب الجبرية وعليهِ نفاة التعليل من المتكلمين والأصوليين، نفاة العلل والأحكام، نفاة العلل والحِكم يقولون: الأمر يرجع إلى محضِ الإرادة، لماذا هذا؟ لأنه أراد هذا، لماذا أراد؟ لا يدخلون في هذا، لذلك يقول شيخ الإسلام: نسبة الخوف إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والوضوح في هذا فيهِ سلامةٌ من الشرك وسلامةٌ من التمجس الذي وقع فيهِ من؟ المعتزلة ووقع فيهِ المجوس، ووقع فيه الفلاسفة الذين جعلوا الله عَزَّ وَجَلَّ علة العلل، أي جعلوا أفعاله اضطرارية، وهؤلاء سلموا من هذا كلهِ ولكنهم وقعوا في: لم يجعلوا لله عَزَّ وَجَلَّ حكمةً في شيء منها، لذلك يقول: ولو خُلط...؟!

المتن:

ولو خلط بهذا الكلام ضرب من وجوه الرحمة، وأنواع الحكمة علمناها أو جهلناها لكان أقرب إلى القبول.

الشرح:

أي لكان هذا القولُ أي تامًا في جوانبهِ ولكنهم ألغوا هذا وركزوا على صرف المشيئة والإرادة.

المتن:

وبكل حال فلام التعليل في فعله سبحانه وتعالى ليست على ما يعقله أكثر الخلق من لام التعليل في أفعالهم، ووراء ما يعلمه هؤلاء ويقولون: مما أنار الله سبحانه وتعالى به قلوب أوليائه، وقذف في أفئدة أصفيائه، ممن استمسك فيما يظهر من الكلام بسبيل أهل الآثار، واعتصم فيما

يبطن عن الإفهام، بحبل أهل الإبصار، وفي هذا المقام تعرف أولو الألباب سر قوله عَزَّ وَجَلَّ: «سبقت رحمتي غضبي»، وقوله: «الشر ليس إليك»، وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، **وقوله:** ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، **وقوله:** ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: ١٠]، **وما شاكل ذلك من أن الشر إما أن يحذف فاعله، أو يضاف إلى الأسباب، أو يندرج في العموم.**

الشرح:

طبعًا هذه أيضًا فائدة جليلة ذكرها شيخ الإسلام وهو بصدد نسبة الأفعال إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

نحن رأينا أن المخلوقات كلها مخلوقةً لله عَزَّ وَجَلَّ مخلوقةً لهُ، ومن المخلوقات ما لا يليق نسبته لله عَزَّ وَجَلَّ مثل القبائح من أفعال الإنسان، فهل تُنسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ هكذا، أن هذا الشر خالقه الله عَزَّ وَجَلَّ هل قد يُقال؟ لا.

ذكر هنا ثلاثة أمور في نسبة الشر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، أولًا يحذف فاعله: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: ١٠]، في الرشد ذكروا الفاعل والمُريد وفي الشر لم يذكره، هذا أولًا، يُحذف فاعله تأدبًا، أو يُضاف إلى الأسباب: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، هذا الشر الذي تسبب به هذا السبب وهو المخلوق، أو يندرج في العموم، ماذا يُقال؟ الله عَزَّ وَجَلَّ خالق كل شيء، ومن ذلك هذا الشر، أما إفراده بالذِكر...؟!

المتن:

وأما إفراده بالذكر مضافًا إلى خالق كل شيء، فلا يقتضيه كلام حكيم، لما توجبه الحقيقة المقتضية للأدب المؤسس على الدين وليس أدبًا عريًا عن أصلٍ متين لا لمحض متميز.

الشرح:

يقول: ليس من الأدب أن تقول: هذا الشر خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا سُئِلت عن هذا الشر تقول: الله عَزَّ وَجَلَّ خالق كل شيء، افهم، أما إفرادُ شرٍ بعينهِ وإضافته إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا يليق يكون هذا أدب وهذا الأدب من أين أخذناه؟ من الدين، وليس أدبًا عريًا عن أصلٍ متين له أصل.

وما هو الشر الذي أنت تراه شرًا؟ هو الذي يسبب الألم لك، أليس كذلك؟! وما يُسبب الألم لك قد يكون فيهِ خيرٌ لك وأنت ما تدري وقد لا يكون، مثلًا المخلوقات التي فيها الشر المحض كما نراها، خلق الأفاعي، هذه هل تُنسب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ مُفردةً؟ هكذا لهذه الطرق الثلاثة: إما تنسب إلى عموم الخلق يعني الذي في العموم، خالق كل شيء، وإما يُحذف الفاعل، وإما يُضاف إلى الأسباب، وهذا معنى «والشر ليس إليك».

المتن:

وهنا يعرف سبب دخول خلق كثير الجنة بلا عمل، وإنشاء خلق لها، وأما النار فلا تدخل إلا بعمل، ولن يدخلها إلا أهل الدنيا، ويعرف حقيقة: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، مع أن السيئة من القدر.

وقول الصديق وغيره من الصحابة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهم: إن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطئاً فمني ومن الشيطان، إلى غير ذلك مما فيه ما قد لحظ كل ناظر منه شعبة من الحق، وتعلق

بسبب من الصواب وما يتبع وجوه الحق، ويؤمن بالكتاب كله، إلا أولو الألباب وقليل ما هم، فهذه إشارة يسيرة إلى كُلِّي التقدير.

وأما كون قدرة العبد، وكسبه له شأن من بين سائر الأسباب، فإن الله عز وجل خص الإنسان بأن علمه يورثه في الدنيا أخلاقًا وأحوالًا وآثارًا.

الشرح:

نعم وأذن بهِ سابقًا أن له شأن.

المتن:

فإن الله عز وجل خص الإنسان بأن علمه يورثه في الدنيا أخلاقًا وأحوالًا وآثارًا وفي الآخرة أيضاً أموراً أخر لم يحصل هذا لغيره من مخلوقاته، والوجوه التي خص بها الإنسان في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله شخصًا ونوعًا أكثر من أن تحصى، وما من عاقل إلا وعنده منها طرف؛ ولهذا حسن توجيه الأمر والنهي إليه، وصح إضافة الفعل إليه حقيقة وكسبًا، مع أنه خلق الله تعالى، فإن الله تعالى خلق العبد وعمله وجعل هذا العمل له عملًا قام به وصدر عنه، وحدث بقدرته الحادثة.

وأدنى أحوال الفعل، أن يكون بمنزلة الصفات، والأخلاق المخلوقة في العبد، إذا جعلت مفضية إلى أمور أخر، فهل يصح تجريد العبد عنها؟ كلا ولما.

الشرح:

طبعًا هو شيخ الإسلام هنا كما قبت يتحدث عن نسبةِ الكسب والفعل إلى الإنسان وتأكد ذلك لذلك يكون أدنى أحوال الفعل أن يكون بمنزلة الصِفات والأخلاق المخلوقةِ في العبد، الصفات المخلوقة في العبد هل لك أثرٌ فيها؟ ليس لك أثرٌ فيها، الصِفات والأخلاق التي جُبلت عليها، ولكن ألا تنسب إليك؟! يُجرد العبد عنها؟! تُنسب إليه، فعل يُجرَّد عما كان له فيه

اختيار؟ حتى الذي ليس له فيهِ احتيار يُنسب إليه، هل يُجرد عما له فيهِ اختيار؟ كلا، لا زال في إثبات أنها فعلٌ وكسبٌ له.

المتن:

وأما الأمر، فإنه في حق المطيعين من الأسباب التي بها يكون الفعل منهم.

الشرح:

نعم، أمر الله عَزَّ وَجَلَّ لماذا فعلهُ؟ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بهِ، إذًا هذا سببٌ لفعلهِ.

المتن:

فإنه يبعث داعيتهم، ثم أنه يوجب لهم الطاعة ومحض الانقياد والاستسلام فهو من جملة القدر السابق لهم إلي السعادة، وفي حق العاصين هو السبب الذي يستحقون به العصيان، إذ لولا هو لما تميز مطيع من عاص.

وهو وأيضًا في حقهم من القدر السابق لهم إلى المعصية؛ ليضل به كثيرًا ويهدي به كثيرا، عن إدخال الأمر والنهي في جملة المقادير فإنه يحل عقدًا كثيرة هذا بأمر الله سبحانه وتعالى؛ لعلمه بالعواقب.

الشرح:

إذًا الله عَزَّ وَجَلَّ يأمر ويعلم من الذي سيمتثل، من الأمر تبدأ المقادير، من الذي يمتثل فيكون سعيدًا، ومن الذي لا يمتثل فيكون شقيًا، يعني حتى الأمر والنهي يدخل في المقادير؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم بالعواقِب، أما الإنسان إذا أمر بشيء فهل يدري عن من يمتثل أولا يمتثل؟ ما يدري، لذلك أمره أمر الإنسان لا يدخل في المقادير.

سـؤال: ...

الشيخ: إذا أمر هو، أما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم أن منه الأمر والمثيب سيكون بعلمه، وغير المُثيب سيكون بعلمهِ والمعاقب، إذًا كلها داخلة في المقادير، بمعنى أمر الله عَزَّ وَجَلَّ امتثله فلان فوصل إلى السعادة، هذا الأمر مع الامتثال، هذا كله قدرٌ مكتوب، وهذا الأمر كان سببًا لوصولهِ إلى السعادة، وهكذا العصيان، العصيان سببٌ لوصوله إلى الشقاء والله عَزَّ وَجَلَّ يعلم، إذًا من الأمر تبدأ المقادير.

المتن:

وأما أمر العباد فظاهر لعدم تميز المُطيع من المعاصي في علمهم وإن قصدهم نفس صدور الفعل من الجميع.

الشرح:

طبعًا هنا لم أفهم جيدًا، أما أمر العباد للعباد هل هذا هو المقصود؟ يبدو لي هذا هو المقصود: أمر العباد للعباد، لما يأمر العبد هل يعلم من الذي سيأتمر به ومن الذي لا يأتمر به؟ ما يدري، لعدم تميز المُطيعِ من العاصِي في علمهم وأن قصدهم لما يأمر من نفس صدور الفعل من الجميعِ، أما النتيجة لا تهمه هو كما يأمر.

أما الله عَزَّ وَجَلَّ من الأمر إلى النتيجة كل هذا مربوط بعضه ببعض، واضح؟!

سؤال: ...

الشيخ: في أمر العباد أنا آمر فلانًا بأن يُناولني هذا، هذا هو المقصود مني، وأن قصده نفس صدور الفعل، هذا هو المقصود، أأمر هذا بشيء وهذا بشيء ومقصودي حصول هذا الأمر، ليس مقصودي أن أورط هذا أو أورط هذا، أمر الله عَزَّ وَجَلَّ سلسلة طويلة تنتهي إما إلى السعادة ونسأل الله أن نكون من أهل السعادة أو إلى الشقاء، هذا من هنا إلى هنا مربوط بعضه ببعض.

أما أمر العباد: فالمطلوب عنده والمقصود عنده صدور هذا الفعل، من امتثل يُثاب، ومن لم يمتثل لم يكن قد يُعاقب، لم يكن مقصودًا عند العامل معاقبتهُ، واضِح.

إذًا من الذي وصل ومن الذي لم يصل؟ هذا كله بالقدر، ولماذا هذا وصل وهذا لم يصل؟ فلحكمة الله عَزَّ وَجَلَّ لا ندري عن ما في هذا الإنسان وعن ما في هذا الإنسان، ولكن الذي نعرفها أن كليهما مختارٌ ومريبٌ وقدير وله الأسباب الواضحة ومع ذلك لم يجب.

المتن:

فهو أيضًا كذلك في ظاهر الأمر الشرعي على لسان المرسلين بالكتب المنزلة.

الشرح:

نعم هو أيضًا كذلك في ظاهر الأمر الشرعي على لسان المرسلين بالكتب المنزلة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دعا قريشًا، هل كان قصده ألا يمتثل فلان حتى يدخل النار؟ لا، هو كان حريصًا حتى على أبي جهل، وهو فرعون هذه الأمة، كان حريصًا عليه وعلى أمثاله، ولكن ما هو المكتوب عند الله عَزَّ وَجَلَّ؟ لا يدري عنه، لا يدري عنه الرسول الذي أنزل عليهِ الكتاب والذي يُخاطبه، وهو أيضًا كذلك في ظاهر الأمر الشرعي على لسان المرسلين بالكتب المنزلة، أما ما الذي يحصل وما الذي لا يحصل فهذا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

المتن:

ولله في كل مظهر أمر.

الشرح:

في كل مظهر: أي في كل ما حصل.

المتن:

ولله في كل مظهرٍ أمرٌ وحكمةٌ تخصه، فالإرادة والأمر كل منهما منقسمٌ إلى أثرٍ عام الوقوع جامع للقسمين.

الشرح:

طبعًا هذا هو الإرادة الكونية، قدرٍ نافذٍ عام الوقوع جامعٍ للقسمين: الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، سيأتي مفرقٌ بين القسمين، القسمان: الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، والإرادة الكونية والإرادة الشرعية قد تجتمعان، كإسلام المُسلم، وكإيمان المؤمن، الله عَزَّ وَجَلَّ يُحب منه الإيمان وهذه الإرادة الشرعية، وقد آمن فعلًا وهذه هي إرادته الكونية تحققت فيهِ الإرادتان، وقد لا يجتمعان، ككفر الكافر، الإرادة الكونية تحققت والشرعية لم تتحقق، جامعٍ للقسمين: قد تجتمعان وقد لا.

المتن:

وإلى شرع وبما بعد وربما وقف بحسب معونة القدر له، والخير كل الخير في نفوذه، وهو خاص الوقوع مفرق بين القسمين.

الشرح:

فإذًا مفرقٌ بين القسمين، قد يجتمع مع الإرادة الكونية وقد لا يجتمع مع الإرادة الكونية.

المتن:

واضع الأشياء في مراتبها.

الشرح:

طبعًا هذا يقول المحقق: كذا وقعت الجملة في الأصل وكذلك في الفتاوى ولعلها محالةٌ عن موضِعها أو أن كأنها سقطًا، فالجملة لا تليق بالسياق والسباق.

المتن:

وإذا صح نسبة الطاعة والمعصية.

الشرح:

يعني أحيانًا المؤلف يكتب وهو يُريد أن يُضيف فيه شيئًا فينسى قد يكون من هذا القبيل، قد يكون كتب شيئًا ليتذكر شيئًا ونسيه والله أعلم.

المتن:

وإذا صح نسبة الطاعة والمعصية إلى من خلقت فيه، ولو أنه بخلق الصفات.

الشرح:

ولو أنه كخلق الصِفات، هي ليست مثل خلق الصِفات فيها قدرٌ زائِد ولكن شيخ الإسلام لا زال في تأكيد أنها تُنسب إليهِ لذلك يقول: أفيحسن؟!

المتن:

أفيحسن بالإنسان أن يقول: أسود وأحمر وطويل، وقصير، وذكي، وبليد، وعربي، وعجمي؛ فيضيف إليه جميع الصفات التي ليس للإنسان فيها إرادة أصلا البتة لقيامها به، وتأثيرها فيه، تارة بما يلائمه وتارة بما ينافره.

الشرح:

مثلًا البليد ينافر ما يريد، الذكي يلائمه مع هذا كله كلها تنسب إليه لأنها قائمةٌ بهِ.

المتن:

ثم يستبعد أن يضاف إليه ما خلق فيه من الفعل بواسطة قصده وإرادته المخلوقين أيضًا؟

الشرح:

المخلوقين أيضًا؟

المتن:

ثم يقول: ليس للعبد في السيئ شيء، فهل الجميع إلا له؟ بل ليست لأحد غيره، لكن الله سبحانه وتعالى خلقها له، وإضافة الفعل إلى خالقه ومبدعه لا تنافي إضافته إلى صاحبه، ومحله الذي هو فاعله وكاسبه وقد بينا الجبر المذموم ما هو.

ونختم الكلام بكلام وجيز في سبب الفرق بين الخلق والكسب، فنقول: الخلق يجمع معنيين: أحدهما: الإبداع والبرء، والثاني: التقدير والتصوير.

الشرح:

الخلق يجمع هذين المعنيين، الإبداع والبرء أي الخلق ابتداءً والثاني التقدير والتصوير، يُقدِّر ويصور ثم يُوجد، فإذا قيل؟!

المتن:

فإذا قيل: خلق، فلا بد أن يكون أبدع إبداعًا مقدرًا، ولما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبدع جميع الأشياء من العدم وجعل لكل شيء قدرًا، صح إضافة الخلق إليه بالقول المطلق، والتقدير في المخلوق لازم، إذ هو عبارة عن تحديده والإحاطة به.

الشرح:

تحديده: كيف سيكون هذا المخلوق؟ وما هي صِفاتهُ وما هي صفاته في جسمهِ وفي عقلهِ يقدرها ويُحددها ويحيط بها علمًا؟

المتن:

وهذا لازمٌ لجميع الكائنات، لا كما زعم، من حسب أن الخلق يختص ذوات المساحة وهي الأجسام مفرقًا بين الخلق والأمر بذلك، فإنه قول باطل مبتدع.

الشرح:

طبعًا يقول المحقق أن هذا قول الغزالي، أليس هناك فرقٌ بين الأمر والخلق؟ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ لأن الخلق بالأمر، بأمره وأمره كلامه، وهو كن، بأمره يكون المخلوق، إذًا الأمر كلامهُ يؤديهِ يكون مخلوقهُ، وبينهما فرق، ولكن الفرق الذي ذكره الغزالي يرجع إلى جعل الأمر أيضًا إلى الخلق، إلى جعل الأمر أيضًا من الخلق؛ لأنه يقول: الخلق يختص ذوات المساحة أي ذوات المقادير وهي الأجسام طولها وعرضها كذا، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي خلق الأجسام، ﴿وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي خلق ما ليس لهُ مساحة وهي المعاني من الصِفات المحمودة والمذمومة.

ولكن أليس كلاهما خلقًا؟ هذا الإنسان ما يظهر لك هذا جسم، ما لا يظهر لك من الصِفات قد تظهر آثارها ولكن الصِفات هذه أمر عندهم، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي خلق هذا الإنسان جسمهِ، ﴿وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]: خلق صِفاتهِ، إذًا كلها راجعة إلى القسم الأول أليس كذلك؟! واضِح؟! كلها رجعت إلى الخلق، أين الأمر؟ تفريقه ليس دقيقًا بل ليس صحيحًا.

من مذهب الأشاعرة: أنهم لا يثبتون أنه خلقًا بمعنى كونهِ فعلًا، تعرفون أنهم يقولون الخلق هو المخلوق، وبالتالي تفسير الأمر تفسيرًا صحيحًا لا يمكنه أصلًا، يقول: لكن من زعم

من حسب أن الخلق يختص ذوات المساحة من الأجسام مفرقًا بين الخلق والأمر بذلك فإنه قولٌ باطلٌ مبتدع، إذًا التفريق نحن نقول بهِ أيضًا ولكن التفريق الذي ذكره خطئًا.

المتن:

والأمر هو كلامه كما فسره الأولون، والخلق مصنوعاته وقد يجعل الخلق بإزاء إبداع.

الشرح:

هذا معنى آخر: وقد يجعل الخلق بإزاء إبداع.

المتن:

وقد يجعل الخلق بإزاء إبداع الصور الذهنية وتقديرها ومنه تسمية الفعل اختلافًا إذ هو صور ذهنية ليس لها حقيقة خارجة عن الذهن واللسان، وربما جعل الخلق بمعنى التقدير فقط مقطوعًا عنه النظر إلى الإبداع.

الشرح:

إذًا الخلق يجمع معنيين هذا المعنى الأول للخلق.

والمعنى الثاني: وقد يجعل الخلق بإزاء إبداع الصور الذهنية أي ما تتصوره ذهنًا.

الطالب: ...

الشيخ: الأمر واحد والخلق واحد، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي المخلوقات كلها مخلوقاته، وله الأمر: أي بما بهِ كان المخلوق، وهو كلامه، والله عَزَّ وَجَلَّ متصفٌ بصفة الكلام وبكلامه كان خلقٌ، كن: هذا الأمر فيكون: هذا الخلق.

سؤال: ...

الشيخ: لا لا، هذا قد يكون ذكر ثلاث معاني للخلق، الخلق الذي يجمع معنيين هذا هو، قد يُطلق الخلق على ما تتصوره، وما تتصوره قد يكون موجودًا وقد لا يكون موجودًا، ولذلك يُسمى الكذب الذي ليس له وجود اختلاق؛ لأنك تتصوره كأنك تخلقه اختلاق.

المتن:

وربما جعل الخلق بمعنى التقدير فقط مقطوعًا عنه النظر إلى الإبداع، كما قال: ولأنت تفري ما خلقت.

الشرح:

ولأنت تفري ما خلقت أي ما قدَّرته تأتي بهِ تفعله.

المتن:

وكما قال على في تمثال صنعه: أنا خلقته والفرق الأولى من حيث أن تلك الصورة مبتدعة، لكان قولا يكون إلا الله سبحانه وتعالى صح وصفه سبحانه، بأنه خالق كل شيء.

الشرح:

أي معنى؟ المعنى الأول، الذي هو الإبداع ولما كان هذا المعنى لا يكون إلا لله صحَّ وصفه سبحانه بأنه خالق كل شيءٍ.

المتن:

وأما الكسب فقد ذكرنا أنه إنما ينظر فيه إلى تأثيره في محله، ولو لم يكن له عليه قدرة.

الشرح:

إلى تأثيره في محله، ولو لم يكن له عليه قدرة أصلًا كالصِفات التي جُبل عليها وكأعماله الاضطرارية فكيف بما له عليه قدرة وأثر.

المتن:

حتى يقال: الثوب قد اكتسب من ريح المسك، والمسجد قد اكتسب الحرمة من أفعال العابدين، والجلد قد اكتسب الحرمة لمجاورة المصحف، والثمرة قد اكتسبت لونًا وريحًا وطعمًا، فكل محل تأثر عن شيء مؤثر، وملائمًا أو منافرًا صح وصفه بالاكتساب بناء على تأثره، وتغيره، وتحوله من حال إلى حال.

والإنسان يتأثر عن الأفعال الاختيارية، ولا يتأثر عن الأفعال الاضطرارية، فتورثه أخلاقًا وأحوالًا على أي حال كان، حتى على رأى من يطلق اسم الجبر على مجموع أفعاله، فإنه يستيقن تأثير الأفعال الاختيارية في نفسه، بخلاف الاضطرارية، اللّهم إلا من حيث قد توجب الأفعال الاضطرارية أمرًا في نفسه، فيكون ذلك اختيارًا.

الشرح:

نعم الأفعال الاضطرارية التي قد تطول معك قد توجبُ أمرًا في نفسه فيتحول الاختياران، يتأثر بها، مثلًا مريض أصيب بالارتعاش بعد أن شُفي تعود على هذا فيُحرك.

المتن:

ثم اعلم أن الاضطرار، إنما يكون في بدنه دون قلبه، إما بفعل الله تعالي كالأمراض والأسقام، وإما بفعل العباد كالقيد والحبس.

الشرح:

يعني البدن هو الذي يكون مضطرًا، أما القلب لا.

المتن:

وإما أفعال روحه المنفوخة فيه، إذا حركت يديه فهي كلها اختيارية.

الشرح:

إذًا أفعاله المنفوخة؛ لأن أفعاله غير المنفوخة وحياته التي قبل نفخ الروح هي اضطرارية المولود قبل أن تُنفخ فيه الروح فيه حياة مثل ما في النبات، فيهِ حياة وبتلك الحياة ينمو، ولكن حياته بعد نفخ الروح هذه تختلف، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

سؤال: ...

الشيخ: هذه هي الحياة، ولماذا يقيد ويقول: وأما أفعال روحه المنفوخة فيه؟ لأن هذه اختيارية.

المتن:

وحقيقة الاضطرار.

الشرح:

إذا حركت بدنه فهي كلها اختيارية.

المتن:

ومن وجه قد بيناه كلها اضطرارية.

الشرح:

من أين أحياه؟ جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ سببًا.

المتن:

فاضطرارها هو عين الاختيار، واختيارها إنما هو بالاضطرار، وحقيقة الاضطرار هو أن يخلق فيها الاختيار، وربما أحبت من وجه وكرهت من وجه آخر، لكن هذا كله لا يمنع ورود

التكليف، واقتضاء الثواب والعقاب، هذا الذي تيسر كتابته في هذه الحال: ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]، والحمد لله والصلاة على نبينا محمد وآله وسلَّم تسليمًا.

هذا ما نقل بخطهِ ومنه نقل الإمام شمس الدين محمد بن المحب المقدسي الحنبلي تغمده الله تعالى برحمتهِ.

الشرح:

نعم، نكتفي بما ذكره هنا نهاية الرسالة أما ما وجد هذا ليس من هذه الرسالة وقد يكون منها ولكن الرسالة تنتهي هنا.

والله أعلم وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آلهِ وصحبه أجمعين.